د. طه حسين

الوعد الحق



« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »

صدق الله العظيم

١

قال ياسر بن عامر لأخويه مالك والحارث : عودا إن شئتما إلى أرض اليمن ، أو اضربا إن شئتما فى الأرض العريضة ؛ فأما أنا فمقيم ، قد أعجبتنى هذه الأرض فلست أعدل بها أرضاً أخرى ، ورضيت بهذه الدار فلست أبغى بها بديلا . وما رحيلى عن أرض وجدت فيها الأمن بعد الخوف ، والقوة بعد الضعف ، والسعة بعد الضيق ؛ قال أخوه مالك : بل قل ما رحيلى عن أرض فيها هذه الفتاة السوداء التى لا تملك من أمرها شيئاً ، ولكنها تملك من أمرك كل شىء . قال ياسر : فظنُنا بى ما شئتما من الظنون ، ولكنى مقيم لن أبرح هذه الأرض ولن أتحوّل عن هذه الدار . قال الحارث : بُعْداً لك من فتى يؤثر الغربة على قرب الدار ، ومضَر على قحطان ، وقريشاً على عَنْس . وَيْحَك ؛ إنك لا تأمن أن تُسامَ الخسف[1] وتُحمل على ما تكره ، ثم تلتمس العون فلا تجده ، وتبتغى النصير

(١) سامه الخسف أذله

فلا يجيبك إلا من يخذُلك ويعين عليك . قال مالك : وإن فتاتك هذه السوداء لم تنجم[1] من أرض مكة ولم تنزل من سمائها ، وإنما جُلبتْ إليها فيما يجلب إليها من الرقيق ، وإن شئت وجدت أمثالها فى كل منزل تنزل فيه ، وإن شئت احتلنا لك فيها حتى نختطفها وتعيش معها آمناً بين بنى أبيك وذوى مودّتك . قال ياسر : ضعا هذا الأمر كيف شئتما ؛ فإنى مقيم لن أبرح هذه الأرض ، ولن أتحول عن هذه الدار ، ولن أجزى أبا حُذَيفةَ عن الحسنة بالسيئة ، ولا عن المعروف بالمنكر ، ولن أرزأه شيئاً فى ماله وهو الذى قد آوانا وقرانا وأحسن مثوانا[2] . عودا إن شئتما إلى أرض اليمن ، واضربا إن شئتما فى الأرض العريضة ، فأما أنا فمقيم . وما أرى إلا أن لى فى هذه الدار شأناً . قال الحارث : شأن الرقيق الذى لا يُستكثَره على الرقّ ، وإنما يسعى إليه سعياً ويمعن فيه إمعاناً ![3] فإن رفق القوم بك وآثروك بالخير فشأن الحليف الذى يُعال ولا يعول . قال ياسر : عودا إن شئتما فإننى مقيم . قال الحارث لأخيه مالك : دَعه فما علمته إلا نكِداً لا خير فيه .

ورأى الصبحُ حين أسفر من الغد غلامين يخرجان من مكة

(١) نجم الشىء ظهر وطلع .

(٢) رزأه ماله : أصاب منه شيئاً فنقصه . وآوانا : أنزلنا عنده فى منزله وقرانا : أضافنا .

(٣) أمعن فى الأمر : أبعد بالغ فى الاستقصاء .

يقودان راحلة قد وهبها لهما أبو حذيفة بن المغيرة . ويسعى معهما أخوهما ياسر سعىَ المودّع لا سعى منْ أزمع الرحيل[1] وكان هؤلاء الفتية الثلاثة قد خرجوا من دارهم بتهامة اليمن يلتمسون أخاً لهم فقدوه . فطوّفوا فى الأرض ما طوّفوا ، وبحثوا عن أخيهم ما بحثوا . فلما استيأسوا منه عادوا إلى أرضهم . ومرّوا بمكة أثناء عودتهم . وقد بلغ منهم الجهد . وأضناهم سفرٌ غير قاصد[2] . فقال بعضهم لبعض : نأوى إلى هذه القرية فنلم ببيتها ونسأل آلهتها ونصيب فيها حظاً من راحة ، ونسأل أهلها معونة على ما بقى لنا من الطريق .

وأووا إلى مكة وطافوا بالبيت وسألوا الآلهة فلم يجدوا عندها شيئاً ، ثم أقاموا فى المسجد ينتظرون أن تغدو قريش إلى أنديتها . فيمرّ بهم ، حين يرتفع الضحى . أبو حذيفة بن المغيرة المخزومى . فيرى ما أصابهم من الضرّ . فيضمهم إليه ويكرمهم . كما تعوّدت قريش أن تكرم الضيف .

وكان أبو حذيفة قد وَكَّل بخدمة هؤلاء الضيف سميّةَ بنت خيّاط أمة سوداء ، فى أول الشباب . عليها من الجمال نضرةٌ قاتمة بعضَ الشىء ، وفيها من الشباب خفة ومرَحٌ ونشاط ؛ وفى لسانها المستعرب عذوبةٌ حسنة الموقع فى الآذان والقلوب .

فكانت تغدو على هؤلاء الفتية بطعامهم أولَ النهار . وتروح

(١) أزمع الرحيل : عزم عليه وانتواه .

(٢) أضناهم : أمرضهم وأتعبهم . سفر غير قاصد : شاق بعيد .

عليهم بطعامهم إذا أقبل الليل ، وتعمل فى خدمتهم بين ذلك ، وتتحدث إليهم ، وتسمع منهم بين حين وحين ، وكأنها قد وقعت فى نفس هذا الفتى فحببت إليه الإقامة بمكة . ومن يدرى ! لعله أن يكون قد تحدث إليها فى شىء من ذلك فأحس منها مثل ما أحس من نفسه : ميل الغريب المستوحش إلى الغريب المستوحش .

وقد هم الفتى أن يحمل نفسه على ما تكره ، ويعود مع أخويه إلى حيث ينتظرهما أب شيخ حزين وأم شيخة ملتاعة[١] . ولكن الفتى لم يستطع أن يحمل نفسه على ما أراد . وحياة الناس ليست رهناً بما يريدون ، وليست مستجيبة لما يقدرون ، وإنما هى أمور خفية يجريها القضاء ، لا يؤامر[٢] فيها أحداً ، ثم يكون لها فى حياة الناس من الآثار ما لم يكن ليخطر لهم على بال . والشىء الذى ليس فيه شك هو أن الأخوين قد خرجا من مكة يقودان راحلتهما ييممان[٣] تهامة اليمن ، فضاعا فى الدنيا وفى التاريخ ، ولم يعرف أحد عنهما شيئاً ، كما لم يعرف أحد عن أخيهما الضائع وأبويهما الشيخين شيئاً .

وعاد الفتى ياسر بعد أن ودعهما إلى مكة ، فأقام فيها ضيفاً على أبى حذيفة أول الأمر ، ثم حليفاً لأبى حذيفة بعد ذلك ، ثم زوجاً لسمية أمته السوداء تلك . ومنذ ذلك الوقت عرفته الدنيا وحفظه التاريخ .

(١) التاع قلبه : احترق من الهم والشوق وكانت به لوعة .
(٢) يؤامر : يشاور . (٣) ييممان : يقصدان .

٢

وذلك أن أبا حذيفة انصرف من ناديه ذات يوم . فلقى وهو رائح إلى داره ياسراً غير بعيد من المسجد . فقال له مبتسما : ما فعل أخواك يا فتى عنس ؟ فقال الفتى : آثرا[١] قرب الدار على بعدها ، فعادا إلى قومهما . قال أبو حذيفة : وآثرت بعد الدار على قربها . فأقمت فى مكة ! قال الفتى : بل آثرت هذا الحرم الآمن على غيره من مواطن الخوف ، وآثرت جوار هذا البيت العتيق على ما فى اليمن من ضلال وغى[٢] . قال أبو حذيفة: وماذا تريد أن تصنع فى مكة ؟ قال الفتى : ألتمس القوت من مصادره . قال أبو حذيفة : فإن القوت ميسر لك ما بقيت لى جاراً . قال الفتى : بأبى أنت من سيد كريم تزهى به مخزوم وتزدان به قريش وتعز به البطحاء ! إنك والله ما علمت لسخى النفس رضى السيرة ، تحفظ الضائع وتطعم الجائع ، وتعطى السائل وتغنى العائل، وتحمى الجار وتغيث الملهوف[٣] . قال أبو حذيفة :حسبك يا فتى ! لقد جزيت فأربيت[٤] ، وإنى لأرى فيك ذكاء ولسناً[٥] . فأنت جار لى ما أقمت فى هذه القرية .

(١) آثر : فضل .
(٢) الغى : الضلال .
(٣) العائل : الكثير العيال . الملهوف : الحزين والمظلوم .
(٤) أربيت : زدت .
(٥) اللسن : الفصاحة .

قال الفتى : لا وعداكَ ذمٌّ(١) ، ولكني أدعوك إلى خُطَّة سواء بيني وبينك لا تشُقّ عليك ولا تخفف عني : تحميني مما تحمي منه نفسك وأهلك ، وأكون حرباً على من حاربتَ ، وسِلْماً لمن سالمت ، ووقاء(٢) لك ولأهلك من العاديات ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا . قال أبو حذيفة : فهو الحلفُ إذن ؟ قال الفتى : نعم ، إن طابت نفسك به . قال أبو حذيفة : فقد طابت به نفسي ، واطمأن إليه قلبي ! فإذا كان الغدُ فموعدُنا المسجد . قال الفتى : فإنك من المسجد غيرُ بعيد وما أحب أن نرجئ إلى غد ما نستطيع أن نأتيه اليوم . قال أبو حذيفة : فهلمّ إذن .

وأخذ بيد الفتى ، ورجع أدراجَه خطوات . فلما بلغ المسجد قصد الكعبة . قال الفتى : إلى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : أريد أن أشهد الآلهة على حلفنا . قال الفتى متضاحكاً : فأشْهِدْ عليه قومك قبل أن يتفرّقوا ؛ فإن الآلهة مقيمة حيث هي لا تَريم(٣) . قال أبو حذيفة : ما رأيت كاليوم فتى ذكياً أريباً(٤). ثم مضى به إلى أندية قريش ، فجعل لا يمر بناد منها إلا قال : يا معشر قريش ،

(١) أي جاوزك ولم يصبك ما تذم به . وهذا من أساليب العرب التي تصطنعها في الدعاء عند الخطاب .
(٢) الوقاء : الوقاية والصون .
(٣) لا تبرح ولا تنتقل .
(٤) الأريب : الماهر البصير الحاذق .

اشهدوا على أني قد حالفتُ ياسر بن عامر هذا العَنْسي . وجعل لا يقول ذلك لناد من أندية قريش إلا قالوا له : سعيتَ غير مذموم . وحالفت غير ملوم .

فلما طوّف به على أندية قريش كلها قصد به قصْدَ الكعبة . قال الفتى : إلى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : إلى حيث أشهد الآلهة على حلفنا . قال الفتى متضاحكاً : وَيحك أبا حذيفة(١) ! أتظن أن الآلهة لم تسمعك وأنت تشهد الناس ؟ فهي قد سمعت وشهدت ورضيتْ . أم تراها لا تسمع إلا إذا دنوتَ منها كما يدنو الرجل من الرجل حين يريد أن يناجيه ؟ قال أبو حذيفة : ما أرى إلا أني قد حالفت اليوم شيطاناً ! ويحك يا فتى عنس ! فإنا قد ألفنا أن نقف من آلهتنا موقف المتحدث إليها المناجي لها . قال الفتى : فقفْ منها هذا الموقف حيث شئت ؛ فإنها ينبغي أن تكون معك في كل مكان . قال أبو حذيفة وقد أخذه شيء من وجوم ، كأن الفتى قد ردّ إليه شيئاً غاب عنه . أو ردّه الى شيء غاب عنه : فلا أقل من أن نطوف بالكعبة ليتمّ لهذا الحلف حقه من الحرمة والتقديس . قال الفتى : أما هذا فنعم . ثم مضيا فطوّفا بالكعبة ما شاء الله أن يطوّفا بها . وراحا(٢) إلى دار أبي حذيفة حليفين . ولكن بينهما من الأمر أكثر مما يكون بين الحليف والحليف .

(١) ويح : كلمة مدح وتعجب .
(٢) راحا : عادا .

يقول أبو حذيفة للفتى فى طريقهما إلى الدار : ويحك يا عنسى ! إنى لأرى فيك استخفافاً بآلهتنا وازوراراً عنها(١) . أفتراك لم تنسَ آلهة عنس بعدُ ، ولم تردْ أن يخلص قلبك لغيرها ؟ فيقول الفتى : بأبى أنت يا أبا حذيفة ! والله ما ذكرتُ آلهة عنس قطّ فأنساها اليوم أو أستبقى ذكرها فى قلبى ، وما أعرف أنى غدوت عليها مُصْبحاً أو رحت إليها ممسياً ، أو آمنت لها بسلطان . قال أبو حذيفة : فقد صبوتَ(٢) إذن عن آلهة آبائك إلى إله النصارى أو اليهود ؟ قال الفتى : لقد لقيت أولئك وهؤلاء وسمعت منهم . ولم أفهم عنهم ولم أحاول لأحاديثهم فهماً . قال أبو حذيفة : فليس لك إله إذن ؟ قال الفتى : لو كنت متخذاً إلهاً لعبدت البحر الذى يَرُوعنى ويروّعنى(٣) . أو الشمسَ التى تضىء لى أثناء النهار . أو النجومَ التى تهدينى أثناء الليل ، أو السحابَ الذى يطعمنى ويسقينى . ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ نفسى ولا يتحدث إلى قلبى ولا يثير حاجتى إلى العبادة والطاعة والإذعان . فأنا حائر جائر عن القصد(٤) ، ألتمس الهدى فلا أجد إليه سبيلا ، فأعيش مع الناس مشاركاً لهم فى الدنيا مفارقاً لهم فى الدين . قال أبو حذيفة : إن لك لشأناً يا فتى عنس . قال

(١) ازور عنه : عدل وانحرف .
(٢) صبأ : خرج من دين إلى دين آخر .
(٣) يعجبنى ويفزعنى .
(٤) جار : عن الشىء مال عنه .

الفتى : كغيرى من الناس . إلا أنى أفكر فى هذا كثيراً ولا يفكرون فيه إلا قليلا .

وبلغا دار أبى حذيفة فأنفقا فيها سائر النهار وشطراً من الليل يخوضان فى أحاديث الدين والدنيا وفى أحاديث تهامة ونجد والحجاز .

وقد وقع حب الفتى فى قلب أبى حذيفة موقعاً غريباً . حتى قال لنفسه ولأهله حين خلا إلى أهله : ما أحببتُ غريباً قطّ كما أحببتُ هذا الفتى . ولو كنتُ متخذاً ولداً لاتخذته ولداً .

٣

وأقام ياسر ما شاء الله أن يُقيم ضيفاً على حليفه أبى حذيفة . يغدو إلى المسجد مصْبحاً فيقول لقريش ويسمع منهم . ويروح إلى الدار بعدَ أن تزول الشمس ، فلا يقيم فيها إلا ريثما يصيب شيئاً من طعام وراحة . ثم يخرج فيمشى فى الأسواق . ويتعرّف أمر الناس ، ويلتمس أسباب الرزق ؛ حتى اذا يسرتْ له الوسائل للعمل والكسب أراد أن يتحول الى دار له ، وآذن(١) أبا حذيفة بذلك . فلم ير أبو حذيفة بذلك بأساً . ولكنه رأى الفتى متردداً فى نفسه . لا يقدم قلبه إلا ليحجمَ ، وهو يجيل طرفه فى الدار

(١) آذنه أعلمه .

فعلَ من يجد فى التحول عنها مشقة وحزناً ، قال أبو حذيفة : إنى لأراك متردداً محزوناً يا فتى ، وما أعرف أنَّ دارى قد ضاقت بك أو أن أحداً من أهلها قد نالك بمكروه ، فما يمنعك أن تقيم فيها كما أقمتَ إلى الآن ، حتى يتسع لك العيش وتتصل بك أسبابه متينة مطمئنة ؟ قال الفتى : لا والله يا أبا حذيفة ما أنكرتنى دارك ولا أنكرتها ، وما لقيتُ من ضيافتك إلا خيراً ، ولكن لى فى دارك أرَباً[1] قد كنت أظن أنى أستطيع السلوَّ عنه ، ثم تبين لى أن ليس لى إلى هذا السلو سبيل . قال أبو حذيفة ، وقد أخذه العجب : لك فى هذه الدار أرب ! ؟ وما عسى أن يكون ؟ فأطرق الفتى قليلا ، وغشيتْ وجهه سحابة رقيقة حمراء[2] ، ثم رفع رأسه وكأنه قد أجمع أمره على شىء عظيم ، وقال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من الجراءة ، وفيها كثير من الحياء : أمَتُكَ هذه السوداء التى تسمونها سُمَيَّة ، قد وقع حبها فى قلبى يا أبا حذيفة ، ولا والله ما كانت منى إليها ريبة فى نظر أو حديث . قال أبو حذيفة : فتريد أن أهبها لك ؟ قال الفتى : لا والله لا أرزؤك فى مالك[3] . قال أبو حذيفة : فإنك لا ترزؤنى فى مالى شيئاً ، وإنما هى أمة والإماء فى الدار كثير . قال ياسر : لا والله لا أرزؤك فى مالك . وما آثرتُ الحلفَ على

(١) الأرب : الحاجة .

(٢) هذا كناية عن الخجل .

(٣) لا أرزؤك فى مالك : لا أصيب منه شيئاً فأنقصه .

الجوار إلا لتخفَّ مؤونتى عليك ، وما أحبّ أن تقول مخزوم أقام فى الدار مقام الضيف ، ثم لم يتحول عنها كما أقبل عليها . قال أبو حذيفة : فإن شئت زوّجتك منها . قال الفتى وقد أغرق فى ضحك متصل : هيهات يا أبا حذيفة![1] أتريد أن ألدَ لك الإماء والعبيد ؟ قال أبو حذيفة وقد ضرب على كتف الفتى بيده : ويلك ! لقد عنّيتنى منذ اليوم ، تزوّجها وما ولدت لك من ولد فهو حر . قال ياسر : بأبى أنت من سيد كريم ! ألم أقل إنك فخر مخزوم وزينة قريش وعزّ البطحاء . قال أبو حذيفة : حسبك[2] ؛ فقد أسرفت فى الثناء . أقبلْ علىّ إذا كان المساء فتزوّج ، ثم تحوّل بأهلك إلى دارك الجديدة ، وعسى ألا ترى فيها إلا خيراً .

ولم يكد ياسر يتحول بسمية إلى داره حتى غفل عنه التاريخ دهراً طويلا ، كما تعوّد أن يغفل عن الدهماء[3] حين تحيا وحين تموت وحين تُلمّ بها الأحداث وتختلف عليها الخطوب . وماذا عسى أن يصنع التاريخ بفتى من عامة الناس ودهمائها ، ليس له خطر فى مكة ولا مكانة فى قريش ، وإنما هو غلام أجنبى حليف ، يعيش كأمثاله من هذه الأخلاط التى كانت تعيش فى مكة ساعية إلى رزقها أيسرَ السعى ، تكسب القوت ما وجدت إليه سبيلا ، فإن

(١) هيهات : اسم فعل معناه بعد .

(٢) حسبك : كفاك .

(٣) الدهماء : جماعة الناس وعامتهم .

أعياها كسبُه وجدت حاجتها عند أحلافها من سادة قريش . وهي مع ذلك آمنة على أنفسها وعلى ما أتيح لها من مال . لا يعدو عليها عادٍ ولا يسعى إليها مكروه .

وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، أرستقراطياً لا يحفل إلا بالسادة ، ولا يلتفت إلا إلى القادة . وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، ضنيناً[1] بخيلا ومستكبراً متعالياً ، يحفل بالسادة في تحفظ ويلتفت إلى القادة في كثير من الاحتياط ، لا يسجل من أمرهم الا ما كان له شأن أو خطر . وآيةُ ذلك أنه لم يسجل من أمر قريش في تلك العصور إلا أطرافاً يسيرة ضئيلة لا تكاد تظهرنا من أمرهم على شيء ؛ كأن التاريخ كان يراها أهونَ شأناً وأيسرَ خطراً من أن يمنحها عنايته . وكأنه كان يرى قياصرةَ الروم وأكاسرة الفرس وقادة أولئك وهؤلاء وسادتهم أحقَّ بعنايته وأجدر برعايته وأحرى أن يقف عندهم ويبلو[2] أعمالهم ويسجل أخبارهم . فأما سادة قريش وقادتها وذوو المكانة في هذه الأحياء العربية التي لا تحسن كتاباً ولا حساباً ، ولا تسخر الزمان والمكان لأمرها ، وإنما تختلس حياتها من الزمان والمكان والأحداث والخطوب اختلاساً ، فلم يكونوا أحرياء[3] أن ينظر التاريخ

(١) الضنين : البخيل .
(٢) يبلو : يختبر .
(٣) أحرياء : جمع حري ، أي خليق وجدير .

إليهم إلا شزراً[1] ، وأن يسجل من أمرهم إلا ما فيه تفكهة للأجيال المقبلة وترويحٌ عليها وتسلية لها عن بعض ما يشغلها من الهم ، فكيف بالدهماء التي لا تملك المال ولا تصرف التجارة ولا تقوم بأمر الآلهة ولا تدبر السلطان ، وإنما تتسقَّط حياتها تسقُّطاً وتتلقطها تلقطاً ، وتعيش مما يلقي إليها الأغنياء والسراة من الفتات[2] .

وكان ياسر من هذه الدهماء ؛ فلم يحفل به التاريخ ولم يلتفت إليه ، ولم يصحبه في حياته الطويلة ، ولم يسجل غدوَه على التماس الرزق، ولا رواحه على أهله بما اكتسب منه . حتى كان يومٌ أكرِه التاريخُ فيه على أن يلتفت إلى الدهماء أكثر مما يلتفت إلى السادة والقادة، وعلى أن يسجل من أمر ياسر وأمثاله من عامة الناس أكثر مما يسجل من أمر حلفائه من بني مخزوم وأمثالهم من الملأ والسادة في قريش.

في ذلك اليوم نظر التاريخ فإذا أحداثٌ ضئيلة تحدُث لا يكاد الناس يأبهون[3] لها ولا يعْنَوْنَ بها، ولكنها لا تكاد تحدُث حتى تخفق لها القلوب وتتفتَّح لها العقول وتضطرب لها الضمائر . وحتى تعرف الدهماءُ نفسها وتشعر بحقها وتطمح إلى هذا الحق وتسعى إليه جادة لا وانية[4] ولا فاترة ، وحتى ينكر الملأ[5] من قريش كل

(١) نظر إليه شزراً : نظر إليه بجانب عينه مع إعراض .
(٢) السراة : جمع سري ، وهو صاحب المروءة في شرف .
(٣) لا يأبهون لها : لا يفطنون لها .
(٤) وانية ضعيفة .
(٥) الملأ من قريش : أشرافهم وعليتهم .

شىء : يرون المستضعفين فى الأرض وقد سَمَتْ نفوسهم إلى أشياء لم تكن تسمو إليها ، وطمعت قلوبهم فى أشياء لم تكن تطمع فيها . وانطلقتْ ألسنتهم بأشياء لم تكن تنطلق بها . ويرون الرقيق وقد طمحوا إلى الحرية واشتاقوا إليها وهاموا بها وجعلوا يتحدثون فيما بينهم كأنهم ليسوا أقلّ من سادتهم استحقاقاً للحياة، ولا استئهالا(1) للكرامة، ولا ارتفاعاً عما ينقص ، ولا تنزهاً عما يشين (2) . كل قد خلق جسمه من تراب ، وكل يصير جسمه إلى تراب ، لا تمايز أجسامهم حين تولد ، ولا تمايز أجسامهم حين تموت ، وإنما تمايز نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم بين ذلك ، بما تقدّم من الخير ، وما تتجنب من الشر ، وبما تتقى من الإثم ، وما تصطنع من البرّ والمعروف . ثم يتحدّثون بأن نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم تمايز بعد الموت بما تلقى من جزاء أعمالها ؛ فمَنْ يعملْ مثقالَ ذرّةٍ خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . ثم يتحدّثون فيما بينهم بأن حرية الحر لا تفضّله على غيره من الناس إلا إذا آمن واتقى وعمل عملا صالحاً ولم يؤذ الناس بيده ولا بلسانه ولا بقلبه، وأنّ رقّ الرقيق لا يخسّه(3) عن غيره من الناس ما دام يؤمن ويتقى ويحسن فى القول والعمل ويبرئ قلبه من الإثم وضميرَه من السوء . ويتحدّثون فيما بينهم بأن الحرية والرقّ ، والغنى

(1) استئهالا : استحقاقاً .
(2) يشين : يعيب .
(3) لا يخسه : لا يجعله خسيساً دنيئاً.

والفقر ، والقوة والضعف ، أعراضٌ تعرض وتزول . ليس من شأنها أن تميز بعض الناس من بعض، ولا أن تسوّد(1) بعضهم على بعض ، ولا أن تحكِّم بعضهم فى بعض . وإنما يمتاز الناس بالخير والمعروف والتقوى ، ويسود الناس بالسلطان الذى لا يأتيهم من مولد ولا من ثراء ، وإنما يأتيهم من رضا الناس عنهم وثقة الناس بهم وإيمان الناس لهم . ويَحْكُمُ الناس بأمر يأتيهم من السماء قد فصّل لهم الخير والشر ، وبين لهم العرْف والنكر ، وميّز لهم الحلال والحرام ، لا بهذه التقاليد التى توارثوها عن آبائهم . ولا بهذه السنن التى حفظوها عن قديمهم .

بهذا كله كان الرقيق والمستضعْفون فى الأرض يتحدّثون إذا لقى بعضهم بعضاً أو خلا بعضهم إلى بعض . وبهذا كله جعل الرقيق والمستضعفون فى الأرض يتسامعون ثم يتداعوْن ثم يتواصوْن . وبهذا كله رُوِّع الملأ من قريش ذات يوم ، فثار ثائره ، وفار فائره ، وأجمع أمرَه أن يطفئْ هذه الجذوة قبل أن ينتشر لهبها فلا يبقى ولا يذر(2). ونظر التاريخُ ذات يوم إلى مكة فرأى فيها هذه الأحداثَ الصغار الكبار ، وسمع فيها هذه الأحاديثَ التى كانت تهمس بها الأفواه وتصيح بها الضمائر والقلوب والنفوس . ورأى التاريخُ فيما رأى ياسراً ذلك الفتى قد تقدمت به وبزوجه السنّ ، وقد مات حليفه

(1) تسود : تجعلهم سادة .
(2) يذر : يترك .

أبو حذيفة ، وقد رُزق من سميّة ثلاثة أبناء قتل أحدهم فى خطوب مجهولة ، وبقى الآخران يعيشان كما كان أبوهما يعيش .

ويجب أن نسجل أن التاريخ لم يبحث عن ياسر ولا عن بنيه . وإنما أقبل ذات يوم على مكة ليرى بعض ما يجرى فيها من الأحداث . فلم يكد يبلغ المسجد حتى رأى أندية قريش هائجة مائجة تتحدث عن محمد وعن دعوته وعمن تبعه من المستضعفين والرقيق . وقد تذكرُ دارُ أرقم بن أبى الأرقم التى اتخذها محمد لنفسه ولأصحابه نادياً ينشر منه دعوته هذه الرائعة المروّعة ؛ فتحوّل التاريخ عن هذه الأندية الصاخبة إلى دار ابن أبى الأرقم ليرى محمداً وأصحابه ويسمع منهم . ولم يكد يبلغ هذه الدار حتى رأى على بابها رجلين : أحدهما أسود طُوّال ترتفع قامته فى السماء، والآخر أصْهبُ رَبعة[1] . وهما يتحاوران ؛ يقول الأسود لصاحبه الأصهب : ما تصنع هنا ؟ فيقول له الأصهب : وأنت ماذا تصنع ؟ فيجيب الأسود : أريد أن أدخل على محمد فأسمع منه وأعلم علمه . فيقول الأصهب : وأنا أيضاً أريد ذلك . ثم يدخل الرجلان فيسمعان ويُسْلمان. ويعرف التاريخ أن الأسود الطوّال هو عمار بن ياسر ، وأن الأصهب الربعة هو صهيب بن سنان . ومنذ ذلك الوقت يذكر التاريخ ياسراً ذاك الفتى العنْسى ، ويتتبع خطوات ابنه عمار .

(١) أصهب : أحمر اللون أو أشقره . والربعة من الرجال : من يكون بين الطول والقصر .

٤

أصبح ياسر ذاهلا واجماً مشرّد اللبّ . قد أنكر نفسه وأنكرته زوجه سميّة ؛ فقد تعوّد أن يفيق من نومه قبل أن تنشر الشمس ضوءها على بطحاء مكة وجبالها . فلا يُستريح ولا يستريح . وإنما يضطرب فى الدار ذاهباً جائياً كثير الحركة موفور النشاط . يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع حتى يوقظ النائمين من أهله وولده . وهم ينكرون نشاطه وحديثه فى أنفسهم . وربما أنكروا حركته ونشاطه بألسنتهم . وطلبوا إليه شيئاً من سكون وسكوت . فكان يعبث بهم ويسخر منهم . ويلحّ عليهم بحديثه وحركته. ويؤنّبهم[1] مداعباً لهم حتى يصدّهم عن النوم أو يصدّ عنهم النوم .

وكانت زوجه سميّة أشدّ أهل الدار ضيقاً بهذه الحركة وإنكاراً لهذا النشاط ؛ فلم يكن شىء أحبّ إليها من أن تستأخر فى نومها ما وسعها ذلك . كأنها كانت تتصور ما ينتظرها فى الدار من عمل ستجد فيه من الجهد ما يضنيها ويشقّ عليها . فكانت تحب أن ترجئ ذلك ما وجدت إلى إرجائه سبيلا . ولكن الشيخ الثرثار المكثار النشيط لم يكن يكره شيئاً كما كان يكره أن يستيقظ والناس من حوله نيام . فلم يكن يستقرّ له قرار ولا يهدأ له بال حتى يثور أهل الدار

(١) أنّبه : عنفه ولامه .

جميعاً من نومهم ويأخذوا معه فى حديثه الذى لا ينقضى ، يسمعون له كثيرا ويقولون له قليلا .

وكانت أحاديث ياسر مختلفة أشدّ الاختلاف ، تروع بغرابتها وطرافتها وإثارتها للشوق إلى الاستزادة والرغبة فى الاستطلاع . فقد كان ياسرٌ لا ينفكّ يروى غرائب الأخبار وطرائف الأحداث عن موطنه ذلك البعيد فى تهامة اليمن ، وعن أسفاره تلك الكثيرة فى تجارة مخزوم إلى الشام حيناً وإلى العراق حيناً وإلى ما وراء الشام والعراق أحياناً.

ولم يكن أحدٌ أعلم من ياسر بمناقب قريش ومثالبها(١) . ولم يكن أحدٌ أشدّ منه تعلقاً بالتحدث عن سادة قريش وقادتها ، يثنى عليهم.ولا يعفيهم من نقده اللاذع(٢) الذى كان يصادف هوًى فى نفوس السامعين له من أهله وبنيه . وأىّ شىء أحبّ إلى دهماء الناس من التحدث عن السادة والقادة بما يَسُرّ وما يسوء ، وبما يُرضى وما يُسخط ! وكان ياسر إذا أخذ فى الحديث عن قريش أمعن فيه ، واستهوى أفئدة سامعيه .

واستيقنت سمية أنه لن يخرج من الدار إلا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . ولكنه أفاق من نومه ذلك اليوم ، فلم يبْرَ من مضجعه ، ولم يتحرك لسانه فى فمه ، وإنما ظل مستلقياً مكانه لا ينشطُ ولا يقول ، ولا يدعو غيره إلى نشاط أو قول .

(١) المناقب : المفاخر . والمثالب : المعايب .

(٢) اللاذع : المؤلم ، القارص .

وأخذت سمية حظَّها من نوم الصباح كما لم تتعوّد أن تأخذه قط . ولكنها مع ذلك أنكرت هدوء هذا الذى لم يتعود هدوءاً . وصَمْتَ هذا الذى لم يألف صمتاً . فتُقْبِلُ عليه وقد تكلف وجهها الابتسام والرضا ، وأضمر قلبها العبوس والخوف . فتسأله ما خطبه ؟ وهل يجد شيئاً يكرهه ؟ فيجيبها بصوت خافت : ليس بى بأس . ولستُ أجد ما أكره . قالت سمية : فمالك لا تملأ الدار علينا ضجيجاً وعجيجاً ؟ قال ياسرٌ وقد جعل صوته يمتلىء ويقوى شيئاً فشيئاً : ويحك يا سمية ! كيف السبيل إلى إرضائك ؟ إنْ أنشطْ قلت : هلاّ خليت بينى وبين النوم ، وإن أسكنْ قلت : هلاّ ملأتَ الدار علينا ضجيجاً وعجيجاً(١) ! أما إنى لم أهدأ حبّاً فى الهدوء . ولم أسكن إيثاراً للسكون . وإنما رأيت رؤيا روّعتنى عن النشاط والقول . قالت سمية وقد ثاب(٢) الأمنُ إلى قلبها وصرّح وجهها الأسود المتجعد عن رضا لا تكلف فيه — قالت وهى متضاحكة : فهلاّ رأيت من آخر كل ليلة رؤيا تروّعك وتشغلك عن النشاط والقول ! ذلك أجدرُ أن يتيح لى من الراحة والدعة ما أنا فى حاجة إليه . قال ياسر — وقد همّ ثغره أن يبتسم ووجهه أن يشرق.ولكن الروْع لم يلبث أن ردّه إلى الجِدّ والصرامة — قال : ويحك يا سمية ! إنها

(١) الضجيج والعجيج : الصياح والجلبة .

(٢) ثاب : عاد .

رؤيا ليست كالرؤى ، وما أرى إلا أن لها شأناً ! فما أكثرَ ما عرضتْ لى الأحلامُ ، وما أكثر ما انصرفتْ عنى حين أفيق ! ولكن هذه الرؤيا قد تركتْ فى قلبى وعقلى وأمام عينى صورة مُلحَّة لاتريد أن تريم[1] . قالت : فقُصّ رؤياك، لعل حديثك عنها أن يُريحك منها. قال ياسر : هيهات ! ثم استوى جالساً فى بطء وأخذ يقصّ رؤياه مستأنياً . ولم يكدْ يمضى فى حديثه قليلا حتى رُوِّعتْ زوجه وهمّت أن تكفه عن الحديث ، لولا بقيةٌ من شجاعة وفضلٌ من حياء . قال ياسر : لن أقصّ عليك رؤيا ، ولكنى سأصف لك صورة رأيتها نائماً وما زلت أراها يقظانَ : واد ليس بالمسرف فى السعة ولا بالمسرف فى الضيق ، وإنما هو وَسطٌ بين ذلك . يأخذ جانبيه جبلان عظيمان يرقى إليهما الطرفُ ولكنه لا يبلغ أعلاهما . وقد تشقق الجبلان عن فجوات عميقة أراها ولا أحصيها . والنارُ من هذه الفجوات يسعى بعضها إلى بعض . حتى تلتقى وحتى يسيل بها الوادى كما يسيل بالماء . وفى أقصى هذا الوادى من أمامى مُرُوجٌ خضرٌ تجرى فيها مياه عِذَابٌ لا تبلغها هذه النار . وإنما تقف قبل أن تنتهى إليها . وأنت قائمة فى هذه المروج الخضر قد رُدَّ عليك شبابك وأشرق وجهك حتى كأنه الشمس . وأنت تبتسمين لى وتدعيننى باللحظ واللفظ . وتشيرين إلىّ بالبنان . ومن ورائى

(1) تريم : تبعد وتزول .

عمار يحثنى على أن أقتحم النار ، ويقول فى صوت يشيع فيه الحنان : أقدمْ يا أبت ، فليس عليك بأس، إنما هى لفحة أو لفحات[1] ومن ورائها هذه الرياض الخضر ! وسمية قد رُدّ عليها شبابها . وشبابكَ ينتظرك إلى جانبها ليُرَدّ عليك . وأنا أسمع دعاءك ، فأهمّ أن أقتحم النار، ولكن لَفْحتها يوقظنى . ثم يضرب الشيخ جبهته بيده صائحاً : ويلاه ! إنى لأجد مس النار ؛ قالت سمية وقد أقبلت عليه مرتاعة ملتاعة : وَيْحكَ ! لا بأس عليك ! قم فأصب شيئاً من طعام ، ثم اخرُجْ فاقصُصْ رؤياك هذه المروّعة على بعض كهاننا لعلهم أن يجدوا لها تأويلا .

ولم يُقبل المساء من ذلك اليوم حتى كانت رؤيا ياسر قد عبرتْ نفسها ، وحتى وجد ياسرٌ مسّ النار .

٥

أقبل ياسر يسعى إلى المسجد ، حتى إذا بلغ نادى بنى مخزوم ألقى التحية وجلس ، ولكنه لاحظ أنّ وجوه القوم لم تهشّ له . وأنّ أصواتهم لم ترتفع بالسلام عليه ، وإنما ردّ بعضهم عليه تحية فاترة . ومضى بعضهم فى حديثه كأنه لم يلق إلى هذا الطارئ بالا .

(1) لفحته النار : أصابت وجهه وأحرقته .

فأسرّ ياسرٌ فى نفسه بعضَ المَوْجِدَة(١)، ولكنه لم يطلْ عندها الوقوف، فهو يعلم أن فى مخزوم صَلَفاً(٢) وأنفة وكبرياء . ولولا وفاؤه بحالفه لمكان أبى حذيفة من قلبه ، لتحوّل عن مخزوم إلى حىّ آخر من أحياء قريش . ولكنه وَفَى لأبى حذَيفة بعد موته كما وَفَى له أثناءَ حياته . ولم يكن له من هذا الوفاء بدٌّ ؛ فأبو حذيفة قد حفظه بعد ضَيْعة ، وآمنه من خوف ، وزوّجه سمية أحبّ الناس إليه وآثرَهم عنده ، وأعتق له ولده منها قبل أن يولدوا ، ثم لم يمت حتى رَدّ إلى سمية حريتها ، فأصبحت دارُ ياسر دارَ حرية كاملة ، بعد أن كانت داراً نصفها حرٌّ ونصفها رقيق .

وكان ياسر قد أقبل على نادى مخزوم وفى نفسه أن يقص عليهم رؤياه تلك التى أهمّته وروّعته ، يطرفهم بها من جهة ، ويلتمس عندهم لها تأويلا من جهة أخرى ، فلما رأى منهم الفتور والإعراض أمسك لسانه فى فمه ، وجلس صامتاً لا يقول شيئاً . وكانت مخزوم قد عوّدت ياسراً ألا تراه فى ناد من أنديتها أو دار من دورها إلا داعبته وأثارت نشاطه للحديث . ولكنها تلقّته فى هذا الضحى فاترة عنه تكاد تنكره ، لا تسأله حديثاً ولا تسوق إليه حديثاً . ولولا أنه تعوّد أن يستأنى(٣) بهؤلاء المستكبرين حتى يثوبوا إليه فيعبث بكبريائهم

(١) الموجدة : الغضب .

(٢) الصلف : التمدح والادعاء والتكبر .

(٣) استأنى : تنظر وترفق .

ويُسمعهم ما لم يكونوا يحبون أن يسمعوا ، لانصرف عنهم إلى ناد آخر من أندية قريش . ولكنه أقام صامتاً مستأنياً يدير فى نفسه الانتقام من هذا الفتور . على أنه لم ينتظر طويلا قبل أن يساق إليه الحديث ؛ فهذا عمرو بن هشام يسأله فجأة : ما أخرك اليوم عنا يا ياسر ؟ قال ياسر مداعباً: فقد كنتُ فى حاجة إلى إنى(١) يا أبا الحكم ؟ قال عمرو بن هشام وهو يكتم الغيظ فى نفسه : أجلْ ، كنتُ فى حاجة إليك لأسألك عن شىء عُمّىَ(٢) علىّ من أمرك . قال ياسرٌ: وما ذاك ؟ قال عمرو بن هشام: ذاك أنى لم أرك قطّ تَقرّب(٣) إلى آلهتنا ، ولم أسمعك قط تذكرها بخير . قال ياسر متضاحكاً : فهل سمعتنى قط أذكر آلهتكم بسوء ؟ وهل رأيتنى قطّ آتى من الأمر ما يؤذيها ؟ قال عمرو بن هشام : فهى إذن آلهتنا نحن ، وليست منك ولست منها فى شىء ؛ قال ياسر : وما تُريد إلى ذاك ؟ قال عمرو ابن هشام وقد ظهر الغضب فى وجهه وفى صوته جميعاً : أريد أن أعرف مَنْ هو معنا ومَنْ هو علينا ؛ فقد آنَ لكلّ من أقام بمكة أن يصرّح عن ذات نفسه وأن يبدى دخيلة ضميره . ولقد عفونا لأحلافنا عن كثير ، ولكنا لن نعفو لهم منذ الآن عن شىء . قال

(١) الإنى : التأخر والإبطاء ، أى فى حاجة إلى أن أتأخر وأبطىء .

(٢) عمى عليه الأمر : التبس وخفى .

(٣) تقرب : تقدم القرابين ، والقربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها .

ياسر : أَمْسِكْ عليك نفسك أبا الحكم ! فإنك لم ترَ منى ولم ير قومك منى سوءاً منذ حالفتُ عمك أبا حذيفة على أن أكون سِلْماً لمن سالمتم وحرباً على من حاربتم . وإنى لأسمع الآن منك حديثاً لم أسمع مثله منذ أويت(1) إلى حرَمكم هذا . قال عمرو بن هشام وقد اندفع فى ضحك يصور الغيظ أكثر مما يصوّر الرضا : فأنت حربٌ على ابنك عمار إذن منذ اليوم ؟ قال ياسر : أبِنْ أبا الحكم ، فإنى لا أفهم عنك منذ اليوم شيئاً . قال عمرو بن هشام : ألم تعلم أنّ ابنك قد صبأ(2) أمس وآمن لمحمد وأصحابه ؟ هنالك صَعِق ياسر ، فانعقد لسانه واصفرّ وجهه وجعل جبينه يتفصّد(3) عرقاً . وهنالك جعل سادة مخزوم يتقارضون نظرات سراعاً فيها من العَجَب أكثر مما فيها من السؤال . وهمّ عمرو بن هشام أن يتكلم ، فقال له عمه الوليد ابن المغيرة : حسبك يا ابنَ أخى ! ارفُقْ بهذا الشيخ فإنك قد ترى ما نزل به ، وليس عليه من جرائر(4) ابنه شىء ؛ فقد جاوز ابنه سن الأربعين .

وجعل السادة من مخزوم يعيدون على عمرو بن هشام مقالة الوليد . وجعل رُشدُ ياسر يثوب إليه فى أثناء ذلك قليلا قليلا .

(1) أوى البيت وإلى البيت : نزل فيه .
(2) صبأ : خرج من دينه إلى دين آخر .
(3) يتفصد عرقاً : يسيل عرقاً .
(4) الجرائر : جمع جريرة ، وهى الذنب والجناية .

فلما آنس من القوم صمتاً قال لعمرو بن هشام : بئس ما لقيتَ به حليفك يا أبا الحكم ! إنى لم أر عماراً أمس ، ولم أره اليوم . ولم أعرف ما كان من أمره منذ فارقته . وإنك لتضع العُنْفَ فى غير موضعه وتلوم غير ملوم . فهلا عَنُفْتَ بالأرقم بن أبى الأرقم . وهو مثلك سيد من سادات مخزوم ، وهو قد صبأ قبل أن يصبأ عمار إن كان عمار قد صبأ ، وهو قد جعل داره نادياً لمحمد يلقى فيها أصحابه وينشر منها دعوته ويذكر فيها آلهتكم بما تكرهون ! ولكنك خِفت الأرقم بن أبى الأرقم ؛ لأن بنى أبيه يقومون دونه(1) إن أردته بمكروه . فأما حليف عمك أبى حذيفة فليس هناك ! فلو قد كان أبو حذيفة حيًّا لفكرت وقدّرت قبل أن تلقانى هذا اللقاء . قال ذلك ونهض متثاقلا حزيناً منكسر النفس ، فمضى إلى داره وترك بنى مخزوم يتلاومون .

٦

ولم يكد يبلغ داره ويلِج من بابها حتى أنكر من الدار ومن أهلها كل شىء ؛ فقد رأى زوجه سمية فرحة مرحة ، قد أشرق وجهها على رغم ظلمته ، وابتسم ثغرها وهى تلقاه مبتهجة النفس منبسطة الأسارير . فلا يكاد يدنو منها حتى تثب إليه وتتعلق به

(1) يقومون دونه : ينصرونه ويدفعون عنه .

تُلقى إليه في صوت مبهج تشيع فيه الغبطة وتفيض منه البهجة . أبشر ياسر فقد جاءنا عمار بخير الدنيا والآخرة ! قال ياسر دَهِشاً : الآخرة ! ما الآخرةُ ؟ ماذا تقولين ؟ إني لأعيش عيشة منكرة منذ اليوم ، تُرَوِّعني أحلام الليل ، ولا أفهم ما يقال لي أثناء النهار . قال عمار : أبشِرْ يا أبت ؛ فقد جئتك بخير الدنيا والآخرة . قال ياسر : أمُفصحٌ أنت عما تريد ؟ ألم أحدَّثْ أنك قد صبأتَ ! ويلك[1] ! ماذا جنيتَ على أبويك ؟ ! قال عمار وهو يتضاحك رفيقاً بأبيه : بل قلْ : ماذا جنيت لأبويك ! فقد جنيتُ لكما خيرَ الدنيا والآخرة . لقد حدّثك من حدّثك بأني صبأت ، فإني لم أصْبُؤ ، وإنما أسلمت لله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، وأرسل إلينا محمداً يهدينا سُبُلنا ويبصرُنا بأمرنا ويخرجنا من الظلمات إلى النور . ومن الجهالة والضلالة والغيِّ إلى الحكمة والهدى والرشد ، ويُبشِّر منْ آمن واتقى بأن له رضا الله عنه ما عاش ، وبأن له رضا الله عنه ومثوبته له بعد أن يموت . وينذر منْ كذّب وعصى بأن عليه لعنةَ الله حيّاً ، وبأن له نارَ جهنم يصلاها[2] خالداً فيها بعد أن يموت .

وسمع الشيخ هذا كله مصغياً له ، وكأن كلمات ابنه كانت تنفذ إلى قلبه دونْ أن تمر بأذنيه ، وقد جعل وجهه يُشرق شيئاً فشيئاً

(1) الويل : الهلاك ، ويدعى به لمن وقع في هلكة يستحقها .
(2) يصلاها : يقاسي نارها ويحترق بها .

حتى استحال كله نوراً ، وجعلت قوته تذهب عنه شيئاً فشيئاً حتى تهالكَ وكاد ينهار لولا أن أسرع إليه ابنه وامرأته فأسنداه وأجلساه وأقبلا عليه يرفقان به ويتلطفان له . يمسح عمار رأسه وتمرّ سمية يدها على وجهه . والشيخ واجم لا يتحرّك لسانه في فمه إلا بهذه الكلمات : فهو ذاك إذن ! فهو ذاك إذن ! قال عمار في صوت حلو : ماذا تقول يا أبت ؟ قال ياسر وقد احتبستْ في حلقه عبرةٌ لم يتبينْ صوته منها إلا بعد جهد . وقد جعلت عيناه تسحّان على وجهه دموعاً غزاراً — قال ياسر : هو ذاك إذن ! لقد أذكرتني يا بنيّ حديثاً كان بيني وبين أبي حذيفة حين ألممت بمكة ولم أكدْ أجاوز العشرين . أراد أن يحالفني عند آلهته فأبيت عليه . فلما سألني عن ذلك ذكرت له أني لو كنت متخذاً إلهاً لعبدتُ البحر الذي يخيفني ، أو الشمس التي تضيءُ لي ، أو النجومَ التي تهديني . ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ قلبي ولا يتحدث إلى نفسي ولا يثير فيها رَغباً ولا رَهباً . فقد أنبأك محمد إذن بأن لهذه الآيات كلها خالقاً فطرها ودبر أمرها . هو ذاك إذن ! ثم أطرق الشيخ إطراقة طويلة ، ثم رفع رأسه والدموع تنهلّ من عينيه غزاراً وهو يقول : هو ذاك إذن ! ومن أجل هذا آثرتُ بعدَ الدار على قربها . واخترتُ أن أكون حليفاً لبني مخزوم على أن أكون عزيزاً في بني عَنْس . وتركت أخويَّ يعودان إلى تهامة . وأقمت أنا في هذه البطحاء . ثم يتحول إلى سمية فيمسح رأسها بيده وهو يقول : وكان حبكُ هو

الذى دعانى إلى انتظار هذه الساعة . ثم يعود إلى إطراقه ، ثم يرفع رأسه، وقد كفّت عيناه عن البكاء وجعلت قطرات من دمعه تتلألأ فى لحيته ، وهو يقول لابنه عمار : متى تصحبنا إلى محمد لنسمع منه كلمة الحق ؟ قال عمار هلمّ الآن إن شئتما .

وأقبل المساء من ذلك اليوم وإذا أبو جهل عمرو بن هشام قد أقبل فى فتية من أحرار مخزوم ورقيقها ، فوضعوا عماراً وأبويه فى الحديد ، وأشعلوا فى دار ياسر النار . يقول ياسر لسمية والقوم يعتلونهم[1] إلى حيث يحبسون : انظرى سميّة،هذا أول النار التى عرضتها علىّ الأحلام . فيقول عمار : ومن ورائها جنةٌ فيها نعيم ورضوان للذين صدّقوا محمداً واستجابوا لما دعاهم إليه .

٧

واجتمع الملأ من قريش فى المسجد حين ارتفع الضحى من الغد ، فلم يتحدّثوا فى تجارة ولا بيع ، وإنما تحدثوا فى هذا الحدث العظيم الذى ابتكره فتى مخزوم فى هذا البلد الآمن الذى ليس لأهله عهد بتحريق الدور على أهلها ، ووضع الرجال والنساء فى الحديد وإذاقتهم ألواناً من العذاب ، مع أنهم لم يقتلوا ولم يسرقوا ولم يقترفوا من الآثام والذنوب ما تعودت قريش أن تنكره وتعاقب عليه . يقول الوليد بن المغيرة لأبى جهل عمرو بن هشام:ويحك يا ابن أخى !

(١) عتله : جره جراً عنيفاً وجذبه فحمله .

لقد أحدثت فى هذا الحرم الآمن ما ليس لقريش به عهد ؛ لم تؤامرنا فيما صنعتَ، ولم تصدُر عن ذوى أحلامنا [1] ولا عن أولى الرأى من قومك ، وإنما اتبعت هواك ، واستخفّك الغرور ، وتبعك السفهاء من فتياننا والمحمّقون من رقيقنا . وإنى لأخشى أن يكون لهذا الحدث الذى أحدثته ما بعده ؛ فإن لهذا الحرم فى نفوس العرب مكانته : يأمنون فيه من خوف ، ويطعمون فيه من جوع ، ويلتمسون فيه ما لا يجدون فى غيره من الدعة والسعة والطمأنينة والرخاء . فكيف إذا تسامعت العرب بأن الذين يأوون إلى هذا الحرم ويستظلون بظل هذا البيت لا يجدون دعة ولا سعة ولا ينعمون بأمن ولا عافية . وإنما تحرق عليهم دورُهم ويوضعون فى الحديد ويسامون سوء العذاب ! وكيف إذا تسامعت العرب بأن فتيان قريش وسفهاءها قد بغوا وطغوا وأصبحوا لا يحفلون بالملأ ولا بذوى الأحلام والرأى من قومهم ، وإنما يركبون رءوسهم ويستجيبون لشهواتهم ويتبعون أهواءهم لا يحفظون للجار عهداً ولا يرعون للاجئ حرمة ! أما إنى مشير على مخزوم بأن تطلق هؤلاء الأسارى وبأن تنصفهم منك ومن أصحابك . قال أبو جهل عمرو بن هشام وقد انتفخ سَحْرُه[2] وورم أنفه وصعد الدم إلى وجهه وجعلت عيناه تقدحان شرراً : هيهاتَ ، لا واللات

(١) تؤامرنا : تستشيرنا . ولم تصدر عن ذوى أحلامنا : لم تفعل ما فعلتَ عن رأى العقلاء فينا . الأحلام : العقول .

(٢) السحر : الرئة . وانتفاخ السحر كناية عن مجاوزة القدر .

والعزّى لا تصلون إلى هؤلاء الأسارى وقائمُ هذا السيف فى هذه اليد . وإنى لأعلم أنى أحدثت فى هذا الحرم ما لا عهدَ لأهله به ، ولكنك تعلم يا عمّ أن محمداً قد سبقنى فأحدث فى هذا الحرم ما لا عهد لأهله به . قال الوليد فى رفق : وَيحكَ يا ابنَ أخى ! فإن محمداً لم يحرق داراً ولم يعنُفْ بأحد ولم يضعْ أحداً فى الحديد . قال أبو جهل : بل هو فعل شرًّا من ذلك ، إنه أفسد علينا الرقيق ، وأفسد علينا الدهماء[1] ، يغريهم بآلهتنا ، ثم لا يكفيه ذلك فيغريهم بأموالنا ومرافقنا ويطمعهم فى مراتبنا ومنازلنا التى توارثناها ، ثم لم نخلدْ إليها ، وإنما نبذل فى الاحتفاظ بها ما نملك من قوة وجهد ألم تر إلى هؤلاء الرقيق الذين اتبعوا محمداً يزعمون أنهم رجال أمثالنا ، وأنّ لهم مثل ما لنا من الحق ، وأن عليهم مثل ما علينا من التبعات ، وأنهم أكرمُ منا عند الله منزلة وأرفع منا عنده مكانة ؛ لأنهم يخلصون له قلوبهم ويؤمنون به وحدَه لا يشركون معه اللاتَ والعزى ومناةَ وهُبَلَ ! فهم أولو الرأى والحلم ، ونحن السفهاء والمحمّقون ! ويحك يا عم ! إنكم إن تتركوا محمداً وأصحابه ينشرون دعوتهم هذه فى أرض مكة لا تزيدوا على أن تجعلوا عاليها سافلها ، وعلى أن تُضيعوا ما أورثكم آباؤكم من العزّ والمجد ومن الثراء والسلطان . وأيهما شرّ : أن تتسامع العرب بأن الحلماء من أهل مكة يزجرون السفهاء ويردُّونهم إلى القصد ، أم أن تتسامع العرب بأن الرقيق من أهل مكة قد

(١) الدهماء : جماعة الناس وعامتهم .

أصبحوا سادة ، وبأن السادة قد أصبحوا رقيقاً ، وبأن الآلهة التى يحجُّون إليها من أقصى الأرض قد أصبحت هزؤاً وسخرية ؟ ! لا والله لا تصلون إلى هؤلاء الأسارى وقائمُ هذا السيف فى هذه اليد . قال أمية بن خلف : وَصَلتك رَحِمٌ يا أبا الحكم ! والله لقد سعيت فأحسنت السعى أمس ، ولقد قلت فأحسنت القول اليوم . وإن أمر محمد وأصحابه لشوكةٌ فى جنب هذا الحى من قريش ، ولن يستقيم لهذا الحى أمره حتى تُنْزَعَ من جنبه هذه الشوكة . ولو قد بلا عمُّك من رقيقه وأحلافه مثلَ ما بلوت أنا من بعض أتباعى لما اشتط عليك فى القول ، ولما ألحّ عليك باللوم منذ اليوم . وإن الذى صنعت بأساراك من أحلاف مخزوم ورقيقها أمس قد صنعتُ مثله بقوم من أحلاف جُمَحَ ورقيقها . ولا والله يا معشر قريش ما لكم من أمركم خِيَرَة ، وإنما هى الحرب المنكرة قد حُملتْ إليكم ونُصبتْ عليكم فى عُقْر داركم[1] ؛ فإن أردتم أن يصبح ما لكم نهباً لعبيدكم وإمائكم والطارئين عليكم من أوشاب العربِ وأخلاط الناس ، وإن أردتم أن يفقد هذا البيت حرمته ، وتفقد هذه الآلهة ذكرَها الطائرَ فى الآفاق ، وتصدّ العرب عن الحج إليكم واللياذ بكم ، وتصبحوا أحدوثة فى الأفواه وسمَراً للسامرين ، فتخلّوا بين محمد وأصحابه وما يريدون . وإن أردتم أن تمسكوا عليكم أموالكم ، وتحفظوا على الآلهة سلطانها ، وتكفلوا لهذا الحرم ذكره بين الناس ، فشدّوا على

(١) عقر الدار : وسطها وأحسن مكان فيها .

أيديكم[1] . ورُدّوا على أنفسكم فضلَ أحلامكم ، واستقبلوا أمركم بالحزم والجدّ . وكُفّوا هؤلاء السفهاء عما أمعنوا فيه من الفساد . قال أبو سفيان صخر بن حرْب : أما إنى لا آمن أن أمضى بتجارتكم غداً إلى الشام أو إلى اليمن ، وأن أعود إلى هذا البلد بعد أشهر فأرى أصحاب الأموال وقد شرّدوا وأزيلوا عن أماكنهم . يا معشر قريش إن التجارة خير ، وإن فيها لربحاً وسعة ، ولكن التجارة ليست مربْحة إذا لم يُحمَ ظهرُها . ويحكم ! إنكم تصانعون العرب لتحموا طريق تجارتكم إلى الشام واليمن . فكيف إذا عجزتم عن حماية تجارتكم فى مستقرها ! أما إنى لن أبرحَ الأرض بتجارتكم حتى أعلم أنكم ستحمون ظهرى . وأنى سأعود إلى مكة فأرى أهلى كما تركتهم آمنين وادعين لم يرزءوا[2] فى أنفسهم ولا فى أموالهم . قال الوليد بن المغيرة متضاحكاً : ويحكم ! كأنما أطرتُ بما قلت لابن أخى طائراً كان فى صدوركم[3]! ها أنتم هؤلاء قد أفسد الخوف عليكم أمركم وأخرجكم الذعرُ عن أطواركم . فأكبرتم من أمر هذه العصبة صغيراً ، وعظّمتم من شأنها حقيراً . إنهم ما علمتُ لوادعون يتحدّثون بأحاديثهم فيما بينهم . لم يبادوكم بشر ، ولم يرْزءوكم فى مالكم قليلا ولا كثيراً . قال أبو سفيان : فتريد أن تُنْظرَهم[4] حتى يفعلوا ؟ قال أبو جهل :

(١) شد على يده : أعانه وقواه .
(٢) يرزءوا : يصابوا .
(٣) أى هيجت غضبه وأثرته .
(٤) تنظرهم : تمهلهم .

فإنى أريد أن أستأصل هذا الشر قبل أن يستفحل . امض أبا سفيان بتجارتنا حيث شئت ؛ فإن علىّ أن أحمى ظهرك وأن أحفظ لك مكة كما تحب أن تكون . قال عتبة بن ربيعة : يا معشر قريش : كلكم قال فأحسن القول. إنا والله ما نرضى أن تُسَفَّه أحلامنا ولا أن تعاب آلهتنا ولا أن تتعرض أموالنا لشر ، ولكن لنا فى القصد والعافية ما يغنينا عن العنف والبطش ؛ فلنؤدّب سفهاء[1] قومنا بالأناة واللين . ولنأخذ الرقيق والأحلاف بالشدّة والعنف ؛ فإنا إن نفعل ذلك نقرّ السلم فى ذات بيننا . ونجعلْ من الرقيق والأحلاف مثلا وعبرة ونكالا . قال أبو جهل : وهل فعلتُ غير هذا ؟ إنى واللات والعزّى لو أطعت نفسى لقتلت الأرقم بن أبى الأرقم ، ولحرّقت دارَه على من فيها ، ولوجدت فى ذلك شفاء لنفسى أىّ شفاء ! ولكنى أوثر العافية فى مخزوم ، وأتخذ من هؤلاء الأخلاط والمستضعفين نكالا للصابئين[2] من قريش . قال الوليد بن المغيرة وهو ينهض متثاقلا ويضحك ساخراً : بئس والله ما تصنع يا ابن أخى ! إنما يقيس القوىّ قوته إلى الأضراب والنظراء[3] ، فأما أن يقيسها إلى الأحلاف والرقيق والمستضعفين من الناس فهذا والله الجبن والخرْق[4] . ولكن لا رأىَ لمن لا يطاع .

(١) السفهاء : الجهلاء .
(٢) الصابئون : الذين خرجوا من دين إلى دين آخر .
(٣) الأضراب والنظراء : المماثلون المتشابهون .
(٤) الخرق : ضعف الرأى وسوء التصرف والجهل والحمق .

وتفرّقت قريش فذهب أكثر الملأ إلى دورهم إلا أبا جهل ، فإنه ذهب فى عصبة من الفتية والرقيق فاستخرج أساراه من محبسهم ذاك الذى أنفقوا فيه الليل ، ومضى يدفعهم أمامه يتعجل خطوَهم . وأنى للمقيد أن يسرع الخطو ! ولكن أبا جهل وأصحابه كانوا يخزونهم بالرماح والخناجر وخزاً[1] يؤذى ويُدمى ويشُقّ ، ولكنه لا يبلغ الأنفس ، وربما ألهبوهم ضرباً بالسياط ، وربما جذبوا لحية ياسر وعمار وشَعْر سمية وهم يتضاحكون ويتصايحون ، والناس ينثالون[2] عليهم من كل بيت وينضمون إليهم من كل وجه . وكأنّ الأسارى قد تحدّثت نفوسهم وسكتت ألسنتهم ، فأجمعوا ألا يرفعوا صوتهم بشكاة وألا يظهروا ألماً ولا ضجراً .

ومضَوْا كذلك ، حتى إذا بلغوا مكاناً فى البطحاء وقف أبو جهل ووقف الناس معه ، ثم تقدّم حتى دنا من ياسر فقال له ساخراً منه : أباقٍ أنت على حلفك لمخزوم كما حدثتنا أمس ؟ قال ياسر : فإنك قد أخرجتنا من هذا الحلف حين بغيت علينا[3] ، فألقيت عنا عِبْئَه ووِزْرَه[4] . قال أبو جهل : فقد برئت من حلفنا إذن ؟ قال ياسر : كما أبرأ من الشر والنُكْر وما يخزى الرجل الكريم . ولم يمهله أبو جهل وإنما ضرب وجهه حتى أدماه ، وضرب القوم فى وجه عمار

(١) الوخز : الطعن بالرمح لا يكون نافذاً .
(٢) ينثالون : يقبلون بكثرة متتابعين .
(٣) بغى عليه : استطال عليه وظلمه .
(٤) عبئه ووزره : حمله الثقيل وذنبه.

وسمية حتى أدموْها . ثم تقدّم[1] أبو جهل إلى أصحابه أن يطرحوا هؤلاء الأسارى أرضاً ففعلوا . ثم تقدم إليهم أن يأخذوهم بمكاوى النار[2] فى جنوبهم وصدورهم ففعلوا . ثم تقدم إليهم أن يضعوا على صدورهم الحجارة الثقال ففعلوا . ثم تقدم إليهم أن يصبوا على وجوههم قِرَبَ الماء ففعلوا ، وأبو جهل ينتظر متحرق النفس أن يسمع من أحدهم صيحة أو أنة أو شكاة . ولكن نفوس الأسارى قد تحدّثت بعضها إلى بعض وفهم بعضها عن بعض ، فعقدوا ألسنتهم وعمروا قلوبهم بذكر الله ، وخلوا بين القوم وبين أجسامهم يصنعون بها ما يريدون . وعبث أبو جهل وأصحابه بأجسام هؤلاء الثلاثة حتى ملوا العبث وضاقوا به ، فتفرقوا عنهم بعدأن وكّلوا بها حراساً يحفظونهم على حالهم تلك حتى يعودوا إليهم حين تجنح الشمس إلى الغروب .

٨

قال حرب بن أمية لعبد الله بن جُدْعان : ما رأيتُ كغلامك الرومى هذا ذكاءَ قلب ونفاذَ بصيرة وبراعة فى التجارة ومهارة فى تثمير المال . قال عبد الله بن جدْعان . أما إذا قلت هذا فإنى لا أدرى أعربى هو سبته[3] الروم صبياً حين أغارت على أرض الفرس

(١) تقدم إليه أن يفعل كذا : أمره به .
(٢) يأخذهم بمكاوى النار : يكويهم بالنار ويعذبهم بها .
(٣) سبته : أسرته .

كما يقول . أم رومىّ هو سبته العرب حين أغارت مع الفرس على أرض الروم كما يقول الكلبيون الذين باعوه لى عامَ أولَ فى الشام . قال حرب بن أمية : إنّ فيه حمرة لا تعرفها العرب ، وإنّ لسانه يرتضخ لهجة رومية طالما سمعت مثلها فى كثير من أهل الشام . فليكن عربياً أو ليكن رومياً فليس لذلك شىء من الخطر ، ولكنى لم أر مثله قط ذكاء قلب ونفاذ بصيرة وحسنَ نظر فى التجارة وتثمير المال . لقد رأيته فى رحلتنا تلك إلى اليمن وحين عبرنا البحر إلى بلاد الحبشة شيطاناً من الجن يتنسّم[1] مصادر الربح وموارد الكسب ، وينبئنا غير مكذَّب بأنا إن ذهبنا إلى هذا الوجه أو أقمنا فى هذه القرية بعنا كأحسن ما يكون البيع ، وشرينا كأحسن ما يكون الشراء . ولستُ أدرى كيف تنسم ريح الربح فى بلاد النجاشى ، فاتصل برجال أمثاله لا يحسنون لغتنا ولكنهم يتعاطون فيما بينهم رطانة رومية . فباعهم كل ما كان معنا ، واشترى منهم ما لم نكن نطمع فى شرائه ولا نقدر على حمله . واحتال حتى أعادنا إلى مكة فى السفن التى تمخر البحر لا على ظهور الإبل التى تسبح فى البر . وأشد من ذلك وأدنى غرابة من ذلك إلى العجب أنه ألقى فى رُوع[2] أولئك الناس أنهم يستطيعون إن شاءوا أن يرسلوا رسلاً منهم يحملون ما يحتاجون إليه من المال ليشتروا منا إذا بلغنا أرضنا ما يملئون به سفنهم حتى

(1) تنسم الشىء : تشممه ليعرف مصدره .
(2) الروع : سواد القلب وموضع الفزع منه ، والذهن ، والعقل .

لا تعود إلى مستقرها فارغة ؛ فأغنانا فى موسم واحد عن رحلتين ، بل عن أكثر من رحلتين . قال عبد الله بن جُدْعان : إنه ما علمتُ لغلامٌ صَنَعٌ[1] ميمون النقيبة ، ولقد استكرهت على شرائه ، ولكنى لم أر منه إلا خيراً .

وخلا عبد الله بن جُدْعان مساء ذلك اليوم إلى غلامه ذاك الرومى الذى سبته العرب ، أو العربى الذى سبته الروم ، فقال له : لقد أحسنت البلاء يا صُهيب فى رحلتك هذه إلى اليمن وأرض الحبشة . ولو لم يُثْنِ عليك حرب بن أمية لأثنى عليك هذا المال الكثير الذى رجعت به إلىّ . فهل كان لك بالتجارة من عهد ؟ قال صُهَيب : هيهات ! ما أعلم أنى بعت أو اشتريت قبل رحلتى هذه إلا ما يبيع الناس ويشترون من حاجتهم التى تصلح أمرهم فى كل يوم . قال عبد الله بن جدعان : فهى الفطرة إذن ؟ قال صُهيب : هو ذاك . وأطرق عبد الله بن جدعان ساعة ، وهمّ صُهيب أن ينصرف ، ولكن سيده استبقاه بالإشارة ، فأقام ينتظر أن يرفع سيده إليه رأسه وأن يصدر إليه أمره . وطال إطراق السيد حتى ملّ الغلام أو كاد . ولكن عبد الله بن جدْعان يرفع رأسه ويبسم للغلام ويقول فى تحفظ وهدوء : أضائقٌ أنت بالرق يا صهيب ؟ قال صهيب : ومن ذا الذى لا يضيق بالرق ولا يتمنى أن يكون حراً ! قال عبد الله بن

(1) غلام صنع : ماهر حاذق . ميمون النقيبة : محمود المختبر .

جدعان : فإنى أريد أن أرد عليك حريتك ، وأن أملكك أمر
نفسك(١) ، ولكن بعد أن أعرضك لمحنة ذات خطر. قال صهيب :
فأمسك عليك حريتك هذه التى تريد أن تردها على ؛ فإن الحرية
لا تباع ولا تشترى . قال عبد الله بن جدعان : ويحك يا صهيب !
ماذا تقول ؟ لقد اشتريتك من بنى كلب ، واشتراك بنو كلب من
الروم أو من العرب لا أدرى . قال صهيب : فإنك لم تشترنى ،
وإن بنى كلب لم يشترونى من نفسى ، وإنما عدا على العادون
فباعونى من بنى كلب ، وباعنى بنو كلب منك على كره منى لا عن
رضاً ولا عن اختيار . فأنتم ترونى عبداً قناً وأنا أرانى رجلا حراً ،
وأنتم تتسلطون على جسمى بما تملكون من قوة ومال وسلطان ، ولكنكم
لا تجدون لأنفسكم على نفسى سبيلا . قال عبد الله بن جدعان :
فما أكثر الرقيق الذين يكاتبون(٢) على أنفسهم ويشترون حريتهم
بالأموال والأعمال ؛ قال صهيب : هم وما يصنعون ، أما أنا فلن
أكاتب ولن أشترى حريتى بمال أو عمل ! لأنى ما زلت أرانى حراً
فى نفسى . قال عبد الله بن جدعان : صدق حرب بن أمية ،
إنك لذكى القلب جرىء الجنان ، ولكنى أريد . . . قال صهيب :
تريد أن تمتحننى ! فإن سلطانك على يبيح لك أن تعرضنى لما شئت

---

(١) أملكك أمر نفسك : أصيرك حراً .

(٢) مكاتبة الرقيق : أن يكتب العبد على نفسه بثمنه ، فإذا سعى وأداه عتق .

من محنة ! فمرنى بما شئت فسترانى عندما تحب ، ولكن لا تعدنى
شيئاً ! فإنى لا أكره شيئاً كما أكره الأمانى والوعود .

وهم عبد الله بن جدعان أن يرد عليه رجع حديثه ، ولكن
صهيباً لم يمهله ، وإنما قال له متعجلا : وهل لك فى أن أخفف
عنك بعض هذا العبء الذى ينوء بك(١) ، وأن أفصح لك عما يضيق
به صدرك ولا ينطلق به لسانك ؟ قال عبد الله بن جدعان : وإنك
لتعلم دخائل الصدور ؟ ! قال صهيب : لقد نجحت فى رحلتى
إلى اليمن وأرض النجاشى ، وجلبت إليك مالا كثيراً ، فأنت تود
لو أرسلتنى فى تجارتك إلى الشام وأرض قيصر ، وتظن أنى سأجلب
لك منها أكثر مما جلبت لك فى رحلة الشتاء ، وأنت تأمننى على مالك
وتجارتك لا تخاف أن يصيبك فيهما ضير ، ولكنك لا تأمننى على
نفسى ، وإنما تقدر أنى قد نشأت حراً فى بلاد الروم ، وأنى خليق
إن رأيت هذه الأرض أن أقيم بها وألا أعود إليك ، وعسى أن
أحتجز فيها ما استودعتنى من تجارة ومال . قال عبد الله بن جدعان
أما هذا فلا ؛ إنك عندى أمين على المال والتجارة . قال صهيب :
أولست ترانى بعض مالك ؟ فأمنى على نفسى كما تأمننى على
ما سترسل معى فى العروض(٢) . وبعد فأرح نفسك من هذا العناء ،
وانهض فى تهيئة تجارتك إلى أرض قيصر ، فسأرحل عنك وسأعود

---

(١) ينوء بك : يجهدك ويشق عليك .

(٢) العروض : جمع عرض وهو المتاع .

إليك بمال لا عهد لك بمثله ، فأنا أعلم الناس بما يحب الروم وما يكرهون ، وليس لى فى بلاد الروم أرَب[1] ، وليس لى بالإقامة فيها كلف . فقد علمتُ منذ آخر الصبا وأول الشباب أن بلاد الروم ليست لى بدار . وقد علمت منذ آخر الصبا وأول الشباب أن لى فى قريتك هذه أرَباً أىّ أرب . ولولا ذلك لما قمتُ معك ، ولما أذعنت لسلطانك . وأى شىء أيسر على مثلى من أن يفوتكم إن شاء الفوت ، ولستم بذوى حرَس ولا بأصحاب شرَط . ولو قد شئت لخادعتكم فخدعتكم حتى أخرج من حرمكم هذا ، ثم تطلبوننى ما وسعكم الطلب فلا تجدون إلىّ سبيلا ، ولو قد أدركتمونى لم تقدروا علىّ .

قال عبد الله بن جدعان : لك فى قريتنا هذه أرب أىّ أرب ! وما ذاك ؟ قال صهيب : لو عرفته لأنبأتك به ، ولكنى نُبِّئْتُ منذ آخر الصبا وأول الشباب أن محياى ومماتى فى أرضكم هذه : أعيش فى حرمكم هذا شطراً من عمرى ، وأعيش فى حرم آخر شطرَه الذى يبقى لى ، وأموت وأدفن فى أرض الحجاز . قال عبد الله بن جدعان : ويحك يا صهيب ! إنك لتحدّثنى بالأحاجى[2] منذ اليوم ، وإنى لا أعرف فى بلاد العرب حرماً غير هذا الحرم . قال صهيب : وأنا لا أعرف فى بلاد العرب حرماً غير هذا الحرم ، ولكنى أحدّثك بما نُبِّئْتُ به فى آخر الصبا وأول الشباب ، وهو حديث سمعته من

(١) أرب : حاجة وغاية .
(٢) الأحاجى : جمع أحجية ، وهو الكلام المغلق كاللغز .

قسّ فى بلاد الروم . فلم أفهمه ولم ألق إليه بالا حتى رأيتنى أباع ذات يوم من بنى كلب ، وسمعت سادتى يتحدث بعضهم إلى بعض بأنهم سيبيعوننى بثمن ربيح حين يفد عليهم الوافدون من سكان الحرم من قريش . ولو قد شئتُ أن أفلتَ من بنى كلب لما أعيانى الإفلات ، ولكنى أردت أن أمتحن نبوءة القسّ فألفيتها صادقة إلى الآن . وما أرى إلا أنها ستصدُق حتى تبلغ مداها . فأرسلْنى فى تجارتك حيث شئت ، فإنى ناصح لك وعائد إليك . واردُدْ إلىّ حريتى إن أحببت ، فإنى مقيم فى أرضكم هذه لا أريم . وأخرِجنى منها إن أردت حين يصبح الصبح ، فإنى راجع إليها حين يمسى المساء فمقيم فيها حتى يكون ما لا بدّ من أن يكون . قال عبد الله بن جدعان : ما رأيت كاليوم مغامراً مقامراً ! قال صهيب : هو ذاك . قال عبد الله بن جدعان : فاصحبنى إلى المسجد : فإنى أريد أن أشهد قريشاً على أنك حرّ . قال صهيب : حسبك أن تُشهد نفسك وتُشهدنى على أنى حرّ ! فليس لى فى شهادة غيرنا على حريتى أرب .

وأصبح عبد الله بن جدعان فتحدّث فى أندية قريش بأنه قد أعتق غلامه الرومىّ صُهيباً وحالفه وجعله أميناً على ماله كله وعلى تجارته فى رحلتى الشتاء والصيف ؛ فسمعت قريش ولم تنكر لما تحدّث إليها به حرب بن أمية مما كان لهذا الفتى من حسن البلاء فى تجارة مولاه .

وأنفق صهيب زهرةَ شبابه تاجراً لعبد الله بن جدعان ، يُثمر

ماله وينشر تجارته ، فيُبْعِدُ بها طوراً فى أرض النجاشى وطوراً فى أرض قيصر وتارة فى أرض كسرى ، حتى أصبح عبد الله بن جدعان أكثر قريش مالاً وأوسعها ثراء وأعظمها عطاء وأسخاها يداً ؛ وحتى قصد إليه الشعراء يبيعونه الثناء بالمال الكثير . وكان عبد الله بن جدعان كلما سمع ثناء الناس عليه وأرضاه ذلك قال لصهيب : وإنما لك شطر هذا الثناء ؛ فأنت الذى أتاح لى أسبابه ويسّر لى وسائله . وكان عبد الله بن جدعان ربما سأل صهيباً بين حين وحين : ألا يزال لك فى أرضنا هذه أرَبٌ ؟ فيجيب صهيب : أربٌ ، أى أرب ! يقول عبد الله بن جدعان: فهل تبينت أربك[1] يا صهيب ؟ فيقول صهيب : لو تبينته لما أخفيته عليك .

وأدرك الموت عبد الله بن جدعان ذات يوم ، وخلصت لصهيب نفسه كلها ، وكثر ماله ؛ وكان خليقاً إن شاء أن يتحول إلى أرض قيصر حيث نشأ ، أو إلى أرض كسرى فى العراق حيث ولد ، ولكنه أقام بمكة لا يبرحها ، وجعل يثمر ماله مقتصداً فى هذا التثمير ، لا يغدو فى التجارة ولا يبعد فى الأرض ، وجعل يحيى سنة عبد الله ابن جدعان ، فيطعم الجائع ويغنى العائل ويعين المحتاج . وجعلت قريش تطمئن إليه وتثق به وتأنس إلى حديثه ذاك الذى لا يكاد يُبين ؛ حتى أصبح ذات يوم فسمع قريشاً تتحدث فى أنديتها

(١) تبينت أربك : أوضحته .

عن دار الأرقم بن أبى الأرقم ، ومن كان يجتمع فيها من الناس حول محمد بن عبد الله ، وما كان يتلى فيها من القرآن ، وما كان يدار فيها من الحديث ؛ فيحس صهيب فى نفسه كأن أربه ذاك الذى رافقه منذ آخر الصبا وأول الشباب إلى آخر الشباب وأول الكهولة ، قد جعل يدنو منه قليلا قليلا ، وقد أخذت نفسه تُنازعه إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، فيصدها ويردّها ويستمسك بالبقيا[1] على ما كان بينه وبين سادة قريش من المودّة والإلف ، ولكن شوقه إلى دار الأرقم ابن أبى الأرقم يملأ عليه يقظه النهار ونوم الليل . حتى أصبح ذات يوم وقد أخذ نفسه بما تكره ، وخرج من داره يريد أن يمضى إلى المسجد ، ولكنه يمضى ويمضى ، ثم لا يبلغ المسجد ، وإنما يجد نفسه أمام دار الأرقم بن أبى الأرقم ، ويرى غير بعيد منه عمار بن ياسر ؛ فيكون بينهما ما قدمت من حديث ، ويدخلان ويستمعان ويُسْلِمان ويُقيمان مع أصحابهما ، حتى إذا أقبل المساء خرجوا جميعاً مُسْتَخْفِين .

وافتقدت قريش صهيباً يومها ذاك ، ثم افتقدته من غد ؛ ثم تحسس أبو جهل أخباره ، ثم أقبل ذات يوم وهو لا يمسك نفسه من الغضب ؛ فلما رأته قريش قال قائلها : ثارت ثورة أبى الحكم . ووقف أبو جهل على نادى قومه فاتكأ على قوسه ثم قال فى صوت المُحْنَق المغيظ : اعلموا يا معشر قريش أن صهيباً قد صبأ ، وأنه يُشاركَ آل ياسر فى عذابهم منذ اليوم .

(١) البقيا : البقية . (٢) المحنق : الحاقد : المغتاظ .

٩

لم تشهد خثعم يوماً كذلك اليوم الذى انتصرت فيه على عدو غير محارب ، والذى ملأت فيه أيديها من الغنيمة . لم تتكلف فى ذلك عناء ، ولم تَبلُ فيه بلاء . ولم تبذل فيه جهداً ولم تلقَ فيه كيداً . وإنما كان الرجل منها يمد يده إلى ما يليه من المال ثم يردها وقد أصابت منه ما تريد وفوق ما تريد . كأنما أُنهِبتْ مال النجاشى إنهاباً ، وأُمرتْ أن تأخذ منه حتى ترضى ، ولم تكن ترضى بالقليل . ولا تقنع باليسير ، ولو قد استطاعت لاحتوت فى ذلك اليوم مال النجاشى كله ؛ فقد كان جيش أبرهة يعود منهزماً عن مكة . قد فقد حَولَه وطَولَه وقوته فى غير حرب ، وحُمل أميره عليلا منهوكاً يتراءى له الموت فيفظعه ويُفزعه . ثم تتراءى له الحياة فترد إليه شيئاً من رَوْح وراحة ، وبطانته مشغولة به جازعة عليه . تأمل وجهَ النهار وتبأس آخره ، والجند الذين أعفاهم الموت وأبقت عليهم الطير الأبابيل (١) يسعون متخاذلين متضائلين يتحاملون على سوق (٢) لا تكاد تحملهم ، قد بلغ الجهد من أجسامهم ، وعبث اليأس

(١) الأبابيل : المتفرقة أو المتتابعة .
(٢) سوق : جمع ساق ، أى لا يكادون يستطيعون السير على أرجلهم .

بنفوسهم ؛ فهم ظلال تسوق المال ، إلا أنها ظلال تخاف ولا تُخيف .

وكانت خثعم قد رأت جيش أبرهة وهو يسعى إلى مكة فى قوة أى قوة وعُدَّة أى عدة ونشاط أى نشاط . فأما كرامها وذوو أحلامها فتنحَّوْا لأبرهة عن طريقه(١) ، وكرهوا مقاومته وأنكروا مساومته ، ورأوا أنه مقدم على إثم عظيم ، فربئوا بأنفسهم عن المشاركة فيه . وأما سفهاؤهم وذوو الطيش والنزق منهم فتفرقوا شيعاً واختلفوا أحزاباً : فمنهم مَن قاوم حتى أعيته المقاومة فاستكان ، ومنهم من ساوم فباع نفسه وأقبل على الإثم مستخفاً به غير حافل بعواقبه ، ومنهم من تنحّى عن الطريق ولم يُبعِدْ ، وإنما أقام رصداً (٢) يرقُب الجيش ويتربّص به الدوائر وينتهز منه الغفلات ، يقتل هنا ويَخطف هناك ، ويلوذ بين ذلك بشِعاف الجبال وشعابها(٣) ، حتى اضطغن(٤) عليهم أبرهة فى نفسه وأقسم ليؤدِّبَنّهم مُنصرفَه عن مكة أدباً تتسامع العرب به ، فتعرف للنجاشى هيبته وسلطانه ، ولكن أبرهة لم يدخل مكة ولم يمسس بيتها بسوء ، ولم ينصرف عن مكة انصراف المنتصر ولا

(١) تنحوا عن الطريق : مالوا عنه وابتعدوا .
(٢) الرصد : القوم الذين يرصدون أى يرقبون كالحرس والخدم .
(٣) شعاف الجبال : أعاليها الواحدة شعفة . وشعابها : ما ينفرج بينها ، الواحد شعب بالكسر .
(٤) اضطغن : أضمر الحقد والضغينة .

انصراف المخفق ، وإنما انصرف عنها انصراف المنهزم المخذول الذى فعل الدهر به الأفاعيل ، وإن لم ير جيشاً محارباً ولا عدواً مناوئاً ، وإنما رأى طيراً أبابيل ترميه وترمى جيشه بحجارة من سجيل ، فتجعله وتجعل جيشه كعصف مأكول[1]. وقد أسرع ذوو خاصته به إلى اليمن ، وقد نهكته العلة حتى أشرف على الموت ، ومروا فى طريقهم بخثعم فلم يبطشوا بها ولم يصبوا عليها عقاباً ولا عذاباً ، إنما بطشت بهم خثعم فصبت عليهم العقاب والعذاب ، ولم يخلصوا منها إلا بشقّ الأنفس ، ومضوا يحملون عليهم بين الموت والحياة ، فلم يبلغوا به صنعاء إلا وقد انشق صدره عن قلبه وأدركه الموت بعد أن برّحت به العلة تبريحاً .

فى ذلك اليوم ملأت خثعم أيديها من ذائب النجاشى وجامده ، فأخذت من الذهب والفضة ، وأخذت من الإبل والخيل ما أغلى عليها حين باعته مالا كثيراً ، وأخذت فيما أخذت نساء وفتيات من حسان الحبشة وكرائمهم كنّ يصحبن الجيش يرين فى صحبته لذة وبهجة ومتاعاً ، ويرى آباؤهن وأزواجهن فى استصحابهن تفريجاً عنهن وتسلية لهن ، وإمتاعاً لأنفسهم باستصحاب هؤلاء الحسان فى هذا السفر الذى لن يجدوا فيه مشقة ولن يتكلفوا فيه جهداً ، وإنما هو تسلية للنفوس وتسرية للهموم وتأديب لهذه الفئة الجاهلة الغليظة

(١) عصف مأكول : ورق شجر أكلته الدواب وصار روثاً .

من أهل البادية يهدم ذلك البيت الذى يُكبرُونه[1] ويعكفون عليه، ويرون أنه وحدهُ خليق بالإكبار ، وأنه وحده جدير بالتقديس .

سفرٌ قاصدٌ[2] ممتعٌ يجب أن تكمل فيه للرجال لذّاتُ أجسامهم وبهجة قلوبهم وقرّة عيونهم . ومن أجل هذا استصحب قادة الجيش وأمراؤه زوجاتهم وبناتهم يمتعنهم بالحب والرحمة . ويؤنسنهم بالود والحنان ، واستصحبوا القيان مُغنيات وعازفات وراقصات يزدن بهجة السفر بهجة وجمال الرحلة جمالا . ولم يخطر لهم أنهم إنما كانوا يستصحبون الحرائر والإماء ليجعلوهن نهباً لأولئك العرب الجفاة الغلاظ البادين فى طريقهم إلى البيت ، ولأولئك العرب الجفاة الغلاظ الحاضرين من حول البيت[3].

ويخرج سُحيم بن سُهيل الخثعمى مع الخارجين ويعدو مع العادين ، ويملأ يديه كما ملأ بنو أبيه أيديَهم ذهباً وفضة ونعماً وعرضاً . ولكنه يرى فيما يرى ناقة تسعى يقودها حبشى غليظ جهم ، يظهر عليه فضلٌ من قوة وبأس . ولكنه متخاذل متواكل قد نهكه الجهد[4] وأضنته العلة ، فهو يسعى مذعناً لأمر سادته . ولو استجاب لنفسه لاستراح فى هذا الجانب أو ذاك من جوانب الطريق . ولترك هذه الناقة تقود نفسها وتسعى إلى حيث تريد أو

(١) يكبرونه : يعظمونه .
(٢) سفر قاصد : سهل قريب .
(٣) البادين : سكان البادية . الحاضرين : سكان الحضر أى المدن .
(٤) نهكه الجهد : أضناه التعب .

إلى حيث يريد لها القضاء . وينظر سُحَيم بن سُهَيل فيرى على هذه الناقة هودجاً [1] نفيساً قد ألقيت عليه أستارٌ من الحرير المطرز بالذهب المرصّع بشيء من الجوهر . فيستهويه ما يرى ، ويُسرع إلى العبد ورمحه يضطرب فى يده . فلا يكاد العبد يراه حتى يحول إليه زمام الناقة ويسعى بها بين يديه مستسلماً صاغراً ذليلا . قال سُحيم بن سهيل للعبد : لمن تكون هذه الناقة ؟ ولمن يكون هذا الهودج؟ قال العبد فى لهجة عربية كدرة لا تكاد تبين : إنها ابنة أخت الأمير . قال سحيم بن سهيل لنفسه وهو يدفع العبد والناقة إلى بيته : حسبى من الغنيمة هذا العبد وهذه الناقة وما تحمل من متاع نفيس . فأما ربة الهودج فليست منى ولست منها فى شيء ، ولأطْرِفَنّ بها سيداً من سادات قريش .

ويسعى والعبد يسعى بالناقة بين يديه ، حتى إذا بلغ مضارب الحى أومأ [2] إلى العبد فأناخ الناقة ، ووقف غير بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يلتمس فيها شيئاً . ولكن سحيماً يومئ إليه فينزل الهودجَ عن مستقره على ظهر الراحلة ، ويتنحّى فيقف غيرَ بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يلتمس فيها شيئاً . ويدنو سحيم من الهودج مترفقاً ، ويرفع أحد أستاره متلطفاً ، ثم يمد بصره فى الهودج ، ثم يرده إلى نفسه وقد امتلأ

(١) الهودج : محمل له قبة كانت تركب فيه النساء .

(٢) أومأ : أشار .

وجهه ابتساماً وإشراقاً وهو يقول : حمامةٌ رشيقةٌ أنيقة وربِّ البيت ! ذلك أنه رأى فتاة رائعة الحسن على سُمْرَة بَشرتها ، بارعةَ الجمال ، فاتنةَ اللحظ ، ليست بالطويلة ولا بالبدينة ، وإنما هى ضئيلة نحيلة ، قد ملأها الذّعر وملكها الروع ، ولكنها على ذلك جَلْدَة [1] متماسكة يصدّها الحياء والوقار عن أن تُظهر ما يملأ قلبها من جَزَع وهَلَع ومن تَولّه والتياع [2] . ويمدّ سُحيم بن سهيل نظره إلى الفتاة ثم يرده إلى نفسه ووجهه يزداد إشراقاً وابتساماً ، ولسانه لا يزيد على أن يقول : حمامةٌ رشيقةٌ أنيقةٌ وربِّ البيت ! ثم يخرج الفتاة من هودجها حفيّاً بها [3] متلطفاً لها يقول : لا تُراعى ، لا تُراعى يا ابنتى ، فلن أريد بك سوءاً ، ولن يَمسك منى شيء تكرهينه . ثم يأخذ بيدها ويسعى بها مستأنياً [4] ، والفتاة تُطيعه . وكيف لها بغير الطاعة ! حتى إذا دخل بها إلى أهله قال لامرأته فى صوت حازم صارم : استوصى بهذه الحمامة خيراً ؛ فإن دار خَثعم ليست لها بدار ، وإنما مكانها عند سيد من سادات قريش . ثم يخرج فيحرز الهودج والناقة والعبد ، ويعدو ليدرك الناهبين من بنى أبيه عسى أن يصيب من الغنيمة فوق ما أصاب .

(١) الروع : الفزع . جلدة : قوية شديدة ذات صبر .

(٢) التوله : الحزن الشديد . الالتياع : احتراق القلب من الهم والشوق .

(٣) حفيا بها : مبالغاً فى إكرامها وإظهار الفرح بها .

(٤) مستأنياً : مترفقاً .

ولم يمض شهر بعد ذلك اليوم حتى كان سُحَيم بن سُهَيل عند خَلَف بن وهب الجمحى فى ضَيْعة له بالسَّراة ، قد أقبل ومعه أميرته تلك الفتاة الحبشية حتى أناخ عند دار خلف . وتلقّاه أهل الدار كما تعوّد العرب وكما تعودت قريش أن تَتلقى ضيفها ، ولكنه لم يكد يفرغ من تحيته حتى قال : لو تعلم بماذا أقبلت عليك يا سيد جُمَح ! قال خلف : بالخير ، وما أقبلتَ قطّ إلا بخير . قال سُحيم : أقبلت عليك بابنة أخت الأمير ، ذلك الذى أقبل غازياً للبيت فردّه رب البيت مخذولا مدحوراً[1] . قال خلف : ابنة أخت أبرهة ؟ قال سُحَيم : نعم ابنة أخت أبرهة . قال خلف ما اسمها ؟ قال سُحيم : ما أدرى ، ولكن لم أكد أرى جسمها الضئيل الرشيق الجميل حتى سميتها حمامة ، وحتى رأيت أنها لا تصلح لأحد من خثعم ولا لأحد من العرب إلا أن يكون سيداً من سادات قريش حُماة البيت وسدنة[2] الآلهة ، وأنت تعلم ما بينى وبينك من الحلف والود القديم . وهمّ خلف أن يسأله عما يريد لها من ثمن . ولكن سُحَيماً قال له عَجلا : مهلا أبا أمية ، إنى لم آتك بهذه الأميرة تاجراً ، وإنما أتيتك بها مطرفاً لك هدية الصديق إلى الصديق . قال خلف : وَصَلتكَ رحمٌ ! وأظهر الرضا والاستبشار والشكر ، وعرف فى دخيلة نفسه أن هدايا الأعراب تُقبل وتُجزَى بخير منها . ثم أمر بالفتاة فحوّلت إلى

(١) مدحوراً : مطروداً .

(٢) السدنة : جمع سادن ، وهم خدم الكعبة وحجابها .

حيث أهله ، لم ينظر إليها ولم يحفل بالنظر إليها ، ثم تحدّث إلى سُحَيم فيما يتحدث فيه المضيف إلى الضيف ساعة ، ثم أطرق إطراقة طويلة . ووقع فى نفس سُحَيم أن طُرْفته لم تبلغ من نفس صديقه ما كان يريد . ولكن خلفاً يرفع رأسه ويقول : هل تعلم يا سُحَيم أنك لم تُسْدِ إلىّ معروفاً كهذا المعروف الذى أسديته إلىّ منذ اليوم ؟ إنا لم نُقاتل أبرهة ، ولم نَذُدْ عن البيت ، وإنما أمرنا أن نتفرق عنه وأن نترك حمايته لربه . وقد حَمى صاحب البيت بيته وردّ عنا أبرهة وفيله وأحباشه ، ونحن ننظر إلى ذلك من قمم الجبال ومن ثنايا الطرق التى أوينا إليها وتفرّقنا فيها . فلما ارتد عنا العدو ثُبنا[1] إلى مكة وعدنا إلى بيوتنا ، وفى نفوس كثيرة منا حسرات ؛ لأنا لم نؤدّ لهذا البيت حقه علينا من الذود عنه والقيام دونه[2] . فأنت حين تحمل إلىّ هذه الأميرة إنما تتيح لى أن أشفى نفسى . فوربّ هذه البنيّة[3] التى لم أذد عنها لأذلنّ أميرتك هذه الحبشية ذلاً لم تعرفه الحبشيات بعد . وأول ذلك أنها لن تدخل مكة ، ولن تطأ أرض الحرم ، فقد ردّ صاحبُ الحرم هذا الرّجس[4] عن أرضه وبيته . قال سُحَيم : وَيحك أبا أمية ! لو عرفت أنك ستلقى هذه الحمامة الرشيقة الأنيقة

(١) ثبنا : رجعنا .

(٢) الذود عنه والقيام دونه : الدفاع عنه وحمايته .

(٣) البنية : الكعبة .

(٤) الرجس : القذر والقبيح .

هذا اللقاء السيء لآثرتُ بها نفسي . قال خلف متضاحكاً : هيهات ! إنما هو أمرٌ قد دبره من هو أعظم منك ومني سلطاناً . إن هذه الأميرة يجب أن تستذلّ قريباً من هذا الحرم الذي أراد قومها أن يستذلوه ، وإنها ما عاشت لن تعرف الحرّية ولن تلد الأحرار . قال سُحيم : فأنت إذن تربأ بنفسك عنها(١) ، فارْدُدْها إليّ . قال خلف وقد أغرق في الضحك : هيهات ! إني أربأ بك أنت عنها أيضاً ! فقد قلت إنها ما عشتُ لن تلد الأحرار . إن لي في هذه الضيعة إبلاً وشاء يرعاها غلمان لي فيهم الأسود والأصفر ، فسترعى معهم هذه الإبل والشاء . وهمّ سُحيم أن يراجع صديقه في بعض ما قال ، ولكن خلفاً حوّل الحديث وشغل صاحبه عنه بأنباء اليمن وأحداث تهامة والحجاز.

ودخل خلفٌ على أهله بعد أن عشّى الناس وتقدم الليل ، فألفى امرأته محزونة كئيباً ، فلما سألها عن أمرها لم تُردّ عليه جواباً ، وإنما قالت له في لهجة حزينة : ماذا تريد أن تصنع بهذه الفتاة الحبشية الحسناء التي جلبها لك سُحيم ؟ قال خلفٌ وكأنه أراد أن يثير في نفسها شيئاً من غيظ : استوصي بها خيراً أمّ أمية : فإنها ابنة أخت الأمير صاحب الفيل . قالت أم أمية وقد أجهشت بالبكاء : لم يبقَ إلا أن نرفّق بالذين غزَوْا دارنا وأرادوا أن يستبيحوا الحَرَم وأن يهدموا البيت . هنالك أقبل خلفٌ على امرأته فسح رأسها وهو يقول : لا عليك أم أمية(٢) ! فما أردت إلا إلى الدعابة . إن هذه الفتاة

(١) تربأ بنفسك عنها : تتعالى وتترفع . (٢) لا عليك : لا تهتمي ولا تحزني .

لم تعرف في حياتها إلى الآن إلا العزة والكرامة ، وإني قد أقسمت حين أهداها إليّ سُحيم ألا ترى منذ اليوم إلا الذلّة والهون . إني لم أبل(١) في حماية الحرم شيئاً من بلاء ، فلا أقلّ من أن أذلّ الحبشة في أميرتهم هذه . قالت أمّ أمية : فاجعلها لي خادماً إذن . قال خلف وهو يضحك : هيهات ؛ ليستْ خدمتك ذلّةً لها أم أمية . قالت أم أمية : اجعلها لي خادماً ، وسترى كيف أذيقها الذلّ . قال خلف : قد فعلتُ على أن تُقيم في ضيعتنا هذه بالسراة ، وعلى ألا تطأ الحرم ولا تدخل مكة ؛ فإن ربّ هذا البيت قد ردّ هؤلاء الناس عن الحرم ، وما أريد أن أخالف عن أمره ولا أن أوطئها الحرم ، حتى ولو كانت أمةً خادماً ، ولكني سأرْعيها الإبل والشاء فيمن يرعى الإبل والشاء من عبيدنا وإمائنا . قالت أم أمية : ما أجدرك أن تسود في قريش !

وكان لخلف غلام من مولّدي الحبشة يقال له رَباح قد نيف على العشرين ، وكان ذكيّاً صَناعَ اليد حازم الرأي ، قد أرضى سيده حتى أعتقه وجعله قيّماً(٢) على ضيعته تلك في السراة . فلما أصبح خلفٌ دعا إليه مولاه وقال وهو يبتسم : إيه يا رَباحُ ! هذه أميرة من أمرائكم قد جُلبتْ إلينا أمس ، وقد علمتَ ما كان من قومك ،

(١) أبلى في الحرب : أظهر فيها بأسه حتى بلاه الناس وامتحنوه .

(٢) القيم على الشيء : المتولى أمره .

وإنى قد أزمعت(١) أن أرعيها الإبل والشاء ، فهل أكلها إليك لتذيقها من الذل والهون ما أرى أنها أهل له ؟ قال رباح : وما يمنعك من ذلك وقد رأيت صنيعى بغلمانك على اختلاف أجناسهم ؟ ألست آخذهم بالحزم والصرامة حتى أحملهم على الجادّة(٢) فى خدمتك ؟ قال خلف : هو ذاك ، فخذ هذه الفتاة فألبسها ثياب الرّعيان وأرسلها مع أمثالها . قال رباح : فإنى لا أرى لها فى هذا إذلالاً ولا امتهاناً ، ولكن عندى خُطة أعرضها عليك عسى أن تبلغ بها ما تريد . قال خلف : هات . قال رباح : فإنى لست من أمراء الحبشة ولا من سادتها وإنما أنا من دَهمائها(٣) ، وفى من الزنج عرقٌ ، ولو لم أجلَب إلى بلادكم هذه لما طمعت أن أكون خادماً فى قصر هذه الأميرة . قال خلف وقد ابتسم قلبه وثغره : فأنت تريد أن تتخذها لنفسك زوجاً . قال رباح : إن كنت إنما تريد إذلالها وامتهانها وإذلال سادة الحبشة وقادتها فاجعلها زوجاً لغلام زنجى من غلمانك . قال خلف : قد فعلتُ ، فكن لها زوجاً منذ الآن ، وإذا ارتفع الضحى فاضمم أهلك إليك .

وكان الزنجى فى خطته هذه ماهراً ماكراً ، ولعله لم يمكر بسيده قبل يومه ذاك ولم يكذب عليه ؛ فقد عرف من شأن الأميرة

(١) أزمعت : عزمت ونويت .
(٢) الجادة : الطريق المستقيمة التى لا انحراف فيها .
(٣) الدهماء : عامة الناس .

ما عرف ، واستبان له أن سيده يريد أن يسومها الخسف(١) ، وشق عليه ذلك ، وقدّر فى نفسه أن يعمل ما استطاع لصيانتها مما يُدبَّر لها من الهوان ، فلم يهتد إلا إلى هذه الخطة . فلما رأى أن الأميرة قد أصبحت له زوجاً طابت نفسه واطمأن قلبه ورضى ضميره وعرف أنه سيضمها إليه وسيتخذها لنفسه صَنماً يُخلص له الحب ويُؤثره بالود ويقدّم له من آيات الإكبار والإجلال ما يستطيع مثله أن يقدّم لمثلها فى هذه الحال السيئة التى هما فيها . وعسى الأيام أن تُحدث بعد ذلك أمراً .

وضم رباح زوجه الأميرة إليه ، فأسكنها داره الفقيرة الحقيرة ، وجدّ فى إكرامها والرفق بها ، واختصها بكل ما استطاع أن يختصها به من المحبة والمودة والتوقير ، يغدو عليها بما تحب ، ويروح عليها بما تحب ، ويُجنّبها ما تكره(٢) أثناء النهار ، فإذا كان الليل وآن له أن يأوى إلى مضجعه ألقى وسادة من وراء باب البيت ورمى نفسه عليها ، وأنفق الليل نائماً أو يقظان يُعنى بزوجه ويسهر عليها ، لا يمسها ولا يدنو منها .

وقد أقبلت الفتاة على زوجها مذعنة مستكينة(٣) . فلما رأت إكباره لها ورفقه بها اطمأنت إليه وأنست به واحتفظت بمكانتها منه ، فجعلت

(١) يسومها الخسف : يذلها .
(٢) يجنبها ما تكره : يبعده عنها .
(٣) مذعنة مستكينة : منقادة خاضعة ذليلة .

تتحدث إليه حديث السيد إلى العبد ، ولكن فى شىء من التواضع والأناة وحسن التأتى ، وجعل هو كلما رأى منها رفقاً به وعطفاً عليه ازداد لها حباً واشتد إكباره لها وتوقيره لمكانتها . وأنفقا على ذلك أشهراً وأشهراً والفتى حَفِىٌّ[1] بزوجه لا يَدَع شيئاً يقدر عليه إلا أتاه ليجنبها ما تكره ، وليجعل الرقّ أخف عليها حملا ، وليبسر لها الصبر على محنتها . ولكن أمور الناس تجرى على غير ما يُقدّرون ويدبرون .

فقد أزمع الفتى فى نفسه أن يسير مع هذه الفتاة سيرة الخادم المهين مع السيدة الكريمة المستعلية التى تملك من أمره كل شىء ؛ وأزمع فى نفسه أن هذا الزواج ليس إلا خداعاً لهذا السيد العربى الذى أراد أن يهين أميرة من أميرات الحبشة . وأىّ بأس عليه فى أن ينصح لسيده ما وسعته النصيحة ، ويُخلص فى خدمته ما وجد إلى الإخلاص فيها سبيلا ، ويقوم على ماله أحسن قيام وأرفقه : يدبّره ويثمره كأحسن ما يكون التدبير والتثمير ، لا يستثنى من ذلك كله إلا هذه الفتاة ؛ فإنه لا ينصح فيها لمولاه ، ولا يطيع فيها أمره . وإنما ينصح فيها لنفسه وقومه ، فيؤثرها بالحب ويختصها بالإكبار والكرامة رعاية لمنزلتها فى بلادها تلك البعيدة النائية .

هى زوجه عند خلف وأضرابه من سادة قريش ، وهى زوجه

(1) حفى بزوجه : مبالغ فى إكرامها وإظهار الفرح بها .

عند هؤلاء الغلمان الذين يسوسهم بالحزم ويأخذهم بالعنف ، ولكنها مولاته وأميرته فيما بينها وبينه وفيما بينه وبين نفسه .

أضمر الفتى ذلك فى قلبه ، وفهمت عنه الفتاة ما أضمر ، فقبلته راضية ، واطمأنت إليه مغتبطة ، واعتقدته فى ضميرها مخلصة ، وسارت معه سيرة الأميرة لا سيرة الزوج ؛ ولكنه يغدو عليها بالطاعة والرضا ، ويروح عليها بالطاعة والرضا ، يقوم دونها[1] ما أضاء النهار ، ويسهر عليها ما أظلم الليل . وهى ترى ذلك لها حقاً أول الأمر . ثم تفكر وتقدّر فتعلم أنها أمَةٌ[2] ليس لها حقٌّ على أحد ، وإنما لسادتها عليها الحق كل الحق ، ولهذا الغلام عليها نصيب من حق سادتها ، فهم قد جعلوها له زوجاً ، وجعلوا له عليها حقاً .

تفكر الفتاة فى هذا فتنأى عنه بجانبها أول الأمر ، ثم تعاود التفكير فيه وتعاود النأى عنه . ثم يتصل تفكيرها فيه ، ويتصل برّ الفتى لها ورفقه بها وإيثاره إياها بالطيب من نفسه وبالطيب من الحياة ، إن كان فى حياة الرقيق شىء من الطيبات . وإذا الفتاة تجد فى نفسها عطفاً على هذا الفتى ، ثم ميلا إليه ، ثم احتياجاً إلى مكانه منها ، ثم وحشة حين يغيب عنها فيطيل الغياب .

وتمضى أيام وأسابيع والفتى ماض فى حبه الخالص وبره الصادق ، والفتاة ماضية فى هذا الاضطراب القلق المقلق . ثم تحس الفتاة

(1) يقوم دونها : يحميها ويحافظ عليها .
(2) أمة : جارية .

حاجتها إلى أن تأنس إلى الفتى أكثر مما أنست إليه ، وإلى أن يأنس الفتى إليها أكثر مما أنس إليها أثناء هذه الشهور الطوال . تود لو استطاعت أن تُلغى ما بينها وبينه من الكلفة ، وأن تتحدث إليه ويتحدث إليها حديث الرفيق إلى الرفيق . ولكنها لا تجد الوسيلة إلى ذلك قريبة ولا ميسرة ؛ فقلبها يبسم للفتى ، وثغرها يريد أن يبتسم فيرده عن الابتسام فضلٌ من حياء . ولكنها مع ذلك تلحظ الفتى حين يُقبل عليها أو حين يتحدث إليها فى بعض الأمر لحظاً فيه شىء من دعة ورفق وأنس ، ويبلغ لحظها من الفتى أعماق نفسه فيملؤها غبطة وفرحاً ورضاً ، ثم لا يزيد على ذلك .

فلم يُحدّث الفتى نفسه بأمل قريب أو بعيد ، ولم يُخطر الفتى على باله أن من الممكن أن تُلغى المسافات والآماد بينه وبين أميرته ، أو ينظر إليها ذات صباح أو ذات مساء نظرة الطامع أو الطامح ، وإنما هى بالقياس إليه أميرة قد استقرت على عرش يمكن أن يرقى إليه الطرف ولا يمكن أن ترقى إليه النفس . فضلا عن أن ترقى إليه القدمان . وكذلك أصبح الأمر بين هذين الرفيقين أمراً عجباً : هما زوجان أمام الأحرار والرقيق ، وهما زوجان أمام العرف الذى اصطلح الناس عليه . ولكن الفتى يكبر الفتاة عن أن تكون له زوجاً ، والفتاة لا تكبر نفسها عن ذلك ، ولا تتمنى شيئاً غيره . ولا تجد السبيل إليه . حتى استحالت الصلة بينهما إلى شىء غير مألوف

فالفتاة عاشقة وامقة[١] . ولكن التى يرى نفسه أقلّ من العشق وأصغر من الوموق . وربما ضاقت الفتاة بهذه الصلة التى جعلت تنكرها ، وربما وجدت[١] على الفتى وظنت به الغرور والكبرياء ، وإن لم يجد الفتى فى نفسه إلا التواضع والهوان . ولولا حرص الفتى على أن يكون رفيقاً رقيقاً ، وحرْص الفتاة على أن تكون عارفة للجميل شاكرة للنعمة مقرة بالمعروف ، لجاز أن يَفسُد الأمر بينهما . والفساد لا يُسرع إلى شىء كما يسرع إلى صلة المحبين حين يبلغ بينهما أقصاه ، وحين تثور الصعاب وتقوم العقاب[٣] بينه وبين غايته . فقد جعل صدر الفتاة يضيق ، وجعل السأم يسعى إلى نفسها ، وجعلت لا تُحسّ شيئاً إلا أنكرته ، وجعلت تشعر بأن خُلقها يريد أن يسوء . وأحس الفتى منها بعض ذلك، فغلا فى الرفق[٤]، وأمعن فى التلطف . واشتد ضيق الفتاة بذلك حتى قالت له ذات يوم : إنك لتغلو فى الرفق بى والتلطف إلىّ ، وإنك لتريد الإحسان فتخطئه إلى الإساءة ، وإنك لتعلم أنى محتاجة منك إلى شىء غير هذا التلطف والترفق . قال الفتى فى تواضع وتضاؤل : وما ذاك ؟ قالت الفتاة فى

(١) وامقة : محبة عاشقة .

(٢) وجدت عليه : غضبت .

(٣) العقاب : جمع عقبة ، وهى المرقى الصعب . وتقوم العقاب بينه وبين غايته : تحول الأمور الصعبة دون ما يريده .

(٤) غلا فى الشىء : بالغ فيه .

سخرية مُرّة لاذعة تمزق القلب : إنك لتعلم أنك حر وأنى . . . قال الفتى : مهلا ! إنى حديث عهد بالحرية ؛ فقد كنت قناً (١) منذ عامين. قالت : قناً منذ عامين ،وقد رُدّتْ إليك الحرّية وانحط عنك الرق(٢) ، فأنت أرفع منى مكاناً وأحسن منى حالا . فما تواضعك وتضاؤلك وإمعانك فى العناية بما مضى من الدهر ، وأنت خليق لا أقول بأن تستكبر وتستعلى ، وإنما أقول بأن تذكر ما نحن عليه اليوم ، وما يمكن أن نصير إليه غداً . إنك لتذكر أنى كنت أميرة ، وتحفظ لى حقّ الإمْرَة ، ولكنك أجدر أن تذكر أن الإمرة قد مضت مع الأيام التى مضت ، وأنى قد صرت إلى الرقّ حين عُدتَ أنت إلى الحرية . وأنت بعد هذا كله قد اتّخذتنى زوجاً . قال الفتى : إنما اتخذتك زوجاً لأردّ عنك ما يراد بك من سوء . قالت الفتاة : فقد فعلتَ ، وإنى لذلك لشاكرة ، ولكنك اتخذتنى لنفسك زوجاً ، فليكن الأمر بيننا كما يكون بين الأزواج . هنالك انهلت(٣) دموع غزار من عينى الفتى ، ولم يعرف أكانت دموع الحزن أم دموع السرور . وهنالك صعد الدم إلى وجه الفتاة فأسبغ عليه حمرة قانية لم تعرف أكانت حمرة الخجل أم حمرة الابتهاج بأنها قد اقتحمت ما كان بينها وبين زوجها وشقيق نفسها من العقاب .

---

(١) القن : العبد .
(٢) انحط عنه الرق : صار حراً .
(٣) انهلت : سالت .

أقبل خلفٌ ذات يوم فألمّ بضيعته فى السراة ، وعرف من أمرها ما كان يريد أن يعرف ، وسمع من قيّمه رباح ما كان يحب أن يسمع ، ورضى عما رأى وما سمع وما عرف . فأمور الضيعة تجرى على خير ما كان يحب : مال كثير ،وغلة غزيرة . وأمانة من رباح لا يرقَى إليها الشكّ . وقد بلغ الرضا من نفس خلف أن تمنّى أن يُحسن إلى قيّمه وأن يكافئه على ما بذل من جهد . فأهدى إليه إبلاً وشاء ،وفضلا مما تُغله (١) الضيعة من ثمر الأرض. وتلقى منه شكره للجميل ، فاغتبطت نفسه واطمأن قلبه . وهمّ القيم أن ينصرف راضياً موفوراً. ولكن خلفاً يستوقفه ويسأله فى دعابة حلوة : إيه يا رباح ! أيكما العقيم ؟ فقد مضى دهر منذ أملكتك تلك الحمامة الحبشية.ولم أر لكما ولداً . فوجم القيم شيئاً . وهمّ أن يتكلم ولكن الحياء عقدَ لسانه،فغض بصره وأطرق إلى الأرض . وألح عليه خلفٌ فى السؤال وأعاد إليه مقالته متضاحكاً : إيه يا رباح ! أيكما العقيم ؟ قال رباح وقد عاد إليه شىء من جراءة وشىء من حِفاظ (٢) : وما يعنيك أن نعقم أو أن يكون لنا الولد ؟ قال خلف : على رسلك(٣) يا رباح !! إن تكن حراً فإن حمامتك أمةٌ . قال رباح مغضباً: فأنت إذن زوّجتنيها لتستغلها وتستغلنى كما تستغل الإبل والشاء ! قال خلفٌ : إنك

---

(١) تغله : تخرجه من الغلة .
(٢) الحفاظ : الأنفة والحمية والمحافظة .
(٣) على رسلك : على مهلك ، تأن .

لغضوب يا رباح . إنى لم أردْ أن أسوءك ، وإنما أردت أن أرفق بك وأن أعرف بعض أمرك . قال رباح : فاعرف إذن من أمرى ما تحب . ثم ضرب بيده على جبهته وهو يقول : ويلاه ! لقد أنسيت أنها أمَة ، وأن ابنها سيكون قناً مثلها . قال خلف : وإن لها لابناً يا رباح ؟ قال رباح : نعم ، ولو أطاعتنى نفسى ، ولو أطاعتنى مى لوأدته[1] كما تئدون بناتكم ؛ فليس مما يسرّ ولا يرضى أن يعرف الرجل أنه يُستَفحَل كما تُستفحلُ الإبل . قال خلف وقد بدا فى صوته شىء من الأسى : ويحك يا رباح ! إنك لتشق على نفسك وتشق علىّ فى غير طائل . وأيمُ الله ما أردت استغلالك ولا استفحالك ! وإنك لتذكر كيف تقدّمتُ إليك أن تُرعى هذه الفتاة مع رُعيانا ، فتمنيت علىّ أن أجعلها لك زوجاً ، وزعمتَ لى أن ذلك أبلغ فيما كنت أريد لها من الذل . فما خطبك ؟ وماذا عرَض لك ؟ . . . هنالك ثاب إلى رباح نفسه ، وذكر احتياله فى صيانة الأميرة مما كان يراد بها من سوء ، وذكر أنه لم يخدع مولاه ولم يكذب عليه قط إلا هذه المرة ، وحرَص على أن يخفى خداعه وكذبه مخافةَ أن يصيبه ويصيب زوجه بعض الشر ، فقال وهو يتكلف ضحكاً خير منه البكاء : وماذا تريد أن أقول لك ؟ لقدْ وقعت فى نفسى فأحببتها . قال خلف : أحببتها

(١) وأدته : دفنته حياً .

وكنت تريد أن تُذلّها ؛ قال رباح : أميرة صارت إلى الرق وزُوجت من عبد لم يكن ليطمع فى خدمتها ، فاحتملتْ ذلك مذعنة[1] له ، ثم راضية عنه ، ثم سعيدة به ، فكيف تريد أن أذلها أو أهينها ؟ قال خلف فى صوته الحزين : هو ذاك ، هو ذاك ! قد ألغى الرق ما كان بينكما من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة . قال رباح متضاحكاً : أليس غريباً أن يكون الرق هو الذى يسوّى بين الناس ويُلغى ما بينهم من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة . وأن تكون الحرية هى التى تفرّق بين الناس فتجعل منهم الغنى والفقير والقادر والعاجز والقوى والضعيف والسيد والمسود ؟ متى ينقضى هذا الليل ، ومتى يُسفر عن الصبح المشرق الجميل ! قال خلف ! وَيْحك ! ماذا تقول ؟ أىّ ليل وأىّ صبح ! قال رباح : الليل هو هذا الدهر الذى نعيش فيه والذى يسوّى فيه الرقّ بين الأرقّاء ، وتفرق فيه الحرية بين الأحرار . والصبح هو الزمان المقبل الذى يسوّى فيه بين الأحرار والعبيد ، ويمايز الناس فيه بأعمالهم وبلائهم ، لا بمنازلهم وحظوظهم من الثراء . قال خلف ، وقد أغرق فى الضحك : لقد تكهنت يا رباح منذ اليوم ! دع ليلك المظلم وصبحك المشرق . وحدثنى عن صبيك هذا الذى كنت تريد أن تئده منذ حين : ما اسمه ؟ وما شكله ؟ قال رباح : إنك لتسخر من ليلى وصبحى .

(١) مذعنة : منقادة خاضعة .

وإن ليلى لمنجل ، وعسى أن ندرك انجلاءه ، وإن صبحي لمسفر وعسى أن ندرك إسفاره ؛ فإن لم ندركه نحن فسيدركه ابنك أمية وسيدركه ابني بلال . فهزّ خلف رأسه ورفع كتفيه وقال : حَسْبُكَ يا رباح ، تحدث بهذا إلى غيري ؛ أما أنا فإني زائد في عطائك لمكان هذا الصبي من أسرتك ، ولولا أن قسمًا عظيما قد سبق مني لرددت إلى زوجك حريتها وجعلت ابنك حرًّا مثلك، ولكنك تعلم أنها أقبلت غازية لنا مستخفة بنا منتهكة لحرماتنا (١) . فأمسك عليك أهلك (٢) ، وعيشا سعيدين بصبيكما . فلن يَمسّكم ما حييت سوء ، ولكني أقدر لكم على أكثر من ذلك . قال رباح وهو يهز رأسه ساخراً : أقبلتْ لكم غازية ! أقبلتْ لكم غازية ! وماذا كانت تعرف من أمر الغزو ! لقد كانت فتاة غافلة لا تكاد تعقل نفسها ؛ ولكن الكبار يأثمون فيؤخذ الصغار بآثامهم . قال خلفٌ : ما رأيت كاليوم حكما . انصرف الآن عني واستقبل حياتك سعيداً موفوراً ، ولا تذع حكمتك هذه في الناس فيصيبك منها بعض ما تكره .

وعاش رباح وحمامة ما شاء الله أن يعيشا، قد رضيا من الحياة بما قسم لهما ، وفرغ لابنيهما بلال وأخيه الذى نسي التاريخ اسمه وذكر بعض أمره ، يُنشّئانهما كما تعود أمثالهما تنشيء أبنائهم في منزلة وَسط بين منزلة الأحرار ومنزلة الرقيق . ثم انصرفا عن هذه

(١) منتهكة لحرماتنا : معتدية علينا . وانتهك حرمته : تناولها بما لا يحل .
(٢) أمسك عليك أهلك : احتفظ بهم .

الدنيا وتركا فيها هذين الغلامين يعملان في ضيعة خلف ، ويسعيان في خدمة جُمَحَ كلها . وعاش خلف ما شاء الله أن يعيش ، ثم انصرف عن هذه الدنيا وترك ابنه أمية فتى قويًّا جَلداً، وارثًا مع إخوته لما ترك من العروض والأرض ومن النعم والرقيق . لم يشهد رباح ولم تشهد حمامة ولم يشهد خلفٌ انحسار الليل المظلم وإسفار الصبح المشرق ، وإنما رأى بلال إسفار الصبح، فامتلأ قلبه به نوراً ، ورأى أمية إسفار الصبح فامتلأ قلبه به ظلمة . وآل (١) أمر بلال إلى أن أصبح من أحبّ الناس إلى النبيّ وآثرهم عنده؛ وآل أمر أمية إلى أن أصبح من أبغض الناس إلى النبي حتى قُتل يوم بدر ، وأورث بغضه وعداءه للنبي أخاه أُبيًّا ذلك الذى همّ أن يقتل النبيّ يوم أحد ، ولكن النبي يمسه برمحه فيفتح له باب الموت .

ويقبل أمية ذات يوم ليشهد ما كان أبو جهل يصبّ على آل ياسر من العذاب ، فيقف ثم ينظر ثم يرى ثم يهزّ رأسه ثم يقول لأبي جهل : إذا كان الغد فأقبِلْ على دار جُمحَ لترى كيف نعذّب الصابئين من مستضعفينا ، وكيف نعذب زعيمهم بلالا !

(١) آل أمره : رجع وانتهى .

١٠

شدّ ما تعنفون الصبى وتشتطون عليه (١) ! ما رأيت كاليوم رجالاً قساة القلوب جفاة الطباع غلاظ الأكباد ! . .

قالت ذلك أمّ أنمار، ثم ألقت بنفسها بين أولئك الرهط (٢) من أعراب بنى عامر . فجعلت تدفع فى صدر أحدهم بقبضة يدها اليمنى ، وتجذب ثوب أحدهم الآخر بيدها اليسرى . تريد أن تردّهما عن ذلك الصبى الذى ألحوا عليه صفعاً وتأنيباً (٣) . وكان أولئك الرهط من بنى عامر قد أقبلوا من نجد يسوقون بين أيديهم مطايا تحمل تجارة من حبّ العراق . فلما باعوا تجارتهم وباعوا الرواحل التى كانت تحمل هذه التجارة . أرادوا أن يبيعوا غلامهم ذاك . فعرضوه هنا وهناك ، ولكنهم لم يجدوا طالباً له ولا راغباً فيه . فأحفظت (٤) عليه نفوسهم وقست عليه قلوبهم ، وهمّوا أن ينصرفوا به ليعرضوه على من يمرون

(١) عنفه : عامله بشدة ولم يرفق به . اشتط أفرط فى الظلم .
(٢) الرهط : الجماعة دون العشرة .
(٣) صفعه : ضرب قفاه أو بدنه بكفه مبسوطة . وصقعه : ضرب به على رأسه . وأنبه: عنفه ولامه .
(٤) أحفظه : أغضبه .

بهم من أحياء العرب ، لعلهم أن يجدوا له مشترياً . ولكن الغلام أظهر شيئاً من التمنع والتأبى ؛ كانت نفسه تكره أن ينقلب معهم لكثرة ما صبّوا عليه من الأذى وما نالوه به من المساءة . فلما أظهر الامتناع عليهم جدّوا فى تأديبه وتأنيبه . وأدركتهم أم أنمار الخزاعية وهم يصنعون به هذا الصنيع . فرقّ له قلبها ، ورحمته مما كان يلقى من الضر ، فاندفعت تردهم عنه وتحميه . قال أحد أولئك الرهط من بنى عامر لأمّ أنمار : ما أنت وذاك ؟ ما رأينا كاليوم امرأة سوء ؟ ولو كنت فى غير هذا الحرم لمسّك منا بعض ما تكرهين . قالت أمّ أنمار وقد أخذ الغضب يسكت عنها . وأخذ الابتسام يسعى فى وجهها المتجعّد : ولكنى فى هذا الحرم . فلن تصل إلى أيديكم . ألا تستحيون من أجسامكم هذه الطوال العراض ، ومن لحاكم هذه التى وخطها (١) الشيب . ومن لممكم (٢) هذه التى ترسلونها على أكتافكم أن تبطشوا بهذا الصبى النحيف الضعيف ! قال أحد العامريين : لو أهمّك من طعامه ومؤنته ما يهمنا لما رحمته ولا رفقت به ! إنه والله لغلام سوء . يكلفنا من المؤونة ما يكلفنا ثم لا يغنى عنا شيئاً ، ثم لا يكفيه ذلك حتى يخالف عن أمرنا ويأبى أن يتبعنا . كأنما أعجبته هذه القرية مع أنه لم يعجب من أهلها أحداً . قالت أم أنمار : فإنه قد أعجبنى . قال العامرى : فأدّى إلينا ثمنه ثم

(١) وخطها الشيب : خالط سواد شعرها .
(٢) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن .

خذيه ، لا باركت الآلهة فيه . وكانت بينهم وبين أمّ أنمار مساومة طالت والتوت وكثر فيها الأخذ والرد والجذب والشدّ ، وانتهت بشراء أمّ أنمار للغلام بثمن بخس دراهم معدودة . وانصرف العامريون وقد ألقوا عن أنفسهم عبئاً ثقيلا . وعادت أمّ أنمار إلى دارها فى حى بنى زهرَة تجرّ بيدها هذا الغلام الضئيل النحيل الذى مسه الضر وبلغ منه الجهد وكاد يقتله الجوع . وكانت كلما مرت بجماعة من رجال بنى زُهرَة أو نسائهم قال لها أولئك أو هؤلاء : وَيْحك أمّ أنمار ! ما هذا الطفل الذى تجرينه ؟! فتجيب : وما أنتم وذاك ! غلام اشتريته لأؤمنه من خوف وأطعمه من جوع وأتخذه لى خادماً ولابنى رفيقاً .

وبلغت أمّ أنمار بالغلام دارها فأطعمته وسقته وكسته حتى رضى وحتى ظهر فى وجهه البائس الحزين شىء من رضا وأمن وابتسام . ثم آختْ بينه وبين ابنها عبد العزّى وتركتهما يلعبان ، وانصرفت لشأنها ، فطوّفت فى دور كثيرة من دور مكة ومعها أداتها التى كانت تكسب بها قوتها وقوت ابنها ، وكانت خاتنة . وكانت تقول فى نفسها منذ ذلك اليوم : وَيْحك أمّ أنمار ! قد كنت تعولين نفسك وصبياً واحداً فأصبحت تعولين نفسك وصبيين . ثم تقول لنفسها : لا تراعى أمّ أنمار ! فإنّ هذا الصبى متى استردّ شيئاً من قوة وتقدّمت به السنّ شيئاً فقد ينفعك ويُغلّ عليك[1]

(١) يغل عليك من المال : يأتيك به . أغل على عياله أتاهم بالغلة .

من المال ما يقيم أوَده[1] ويُعينك على نائبات الأيام .

وكانت أمّ أنمار هذه امرأة خزاعية قد ألمتْ بمكة وتزوّجتْ من بعض أحلاف زهرة فيها ، وعاشت تسعى بأداتها فى دور قريش ، وكان الشباب قد انصرم عنها ، وجعلت الشيخوخة تسعى إليها مبطئة ، وكانت كثيرة الصمت ، إلا أن تُثار إلى الكلام ، وهناك لا تجد إلى السكوت ولا يجد إليها السكوت سبيلا .

فلما عادت مساء ذلك اليوم وجدت ابنها وغلامها قد تصرفا فى فنون اللعب حتى أدركهما بعض الجهد ، فأطعمتهما وسقتهما ، ثم أخذت تتحدث إلى الغلام فى دعة ورفق. قالت له : ما اسمك يا بنى؟ قال الغلام : خبّاب . قالت أمّ أنمار : خباب ابن مَنْ ؟ قال الغلام : خباب بن الأرتّ . ولكنه لم ينطق الراء كما ينطقها الصبية حين يكمل خَلْقهم وتستقيم ألسنتهم ، وإنما انحرف بها بين شىء إلى اللام والياء . قالت أمّ أنمار : خباب بن الأرت ؟ من أى أحياء العرب أنت يا بنى ؟ قال الغلام : أحياء العرب ! أحياء العرب ! لا أدرى . قالت أمّ أنمار : أأعجمىّ أنت ؟ قال الصبى : أعجمى ؟ أعجمى ! لا أدرى . قالت أمّ أنمار : وما اسم أمك يا بنى ؟ هنالك انتحب الصبى حتى رقّ له قلب العجوز ، فكفّت عن سؤاله ، وجعلت ترفق به وتكفكف دمعه حتى ثاب إليه شىء

(١) الأود : الاعوجاج والكد والتعب . ويقيم أوده : يسد حاجته .

من طمأنينة وهدوء ، ثم آوته إلى مضجعه . وما زالت تلطف به حتى أسلمته إلى النوم . وقد أرجأت تعرّف قصته إلى غد أو بعد غد .

وقد حاولت أمّ أنمار من الغد ومن بعد الغد أن تستوفى قصة الصبى . فعرفت منه بعد لأى وبعد نحيب وشهيق . وبعد رفق كثير به وعطف كثير عليه ، أن هؤلاء الرهط من بنى عامر أصابوا أسرته على غرّة والحىّ خُلوفٌ [1] . فقاومهم أبوه ما استطاع . ولكنهم قتلوه على أعين امرأته وابنته الفتاة أسماء وابنه هذا الصبى . ثم استاقوا ماله وسَبَوْا أهله [2] ، وباعوا أمّه فى حى من أحياء العرب . وباعوا أخته فى حى آخر من أحياء العرب . وأقبلوا به بمال أبيه . فباعوا المال فى غير جهد . وكسد الصبى فى أيديهم [3] حتى اشترته أمّ أنمار . ومنذ ذلك الوقت لم تسرْ أمّ أنمار مع هذا الصبى سيرة السيدة مع العبد . وإنما سارت معه سيرة الأمّ مع ابنها . ومضت الشهور والأعوام . وأنسى الفتى أو كاد ينسى أنه غلام أمّ أنمار . واستيقن الفتى أو كاد يستيقن أنه ابنها وأخو ابنها عبد العزّى . وشب وقد وطّن نفسه [4] على أنه تميمى حليف لبنى زهرة . ولما استطاع العمل أسلمته أمّ أنمار إلى رجل قَيْن [5] تعلم عنده صناعة الحديد

(1) الغرة : الغفلة . خلوف : غائبون .
(2) استاقوا ماله : استولوا على إبله وساقوها أمامهم . وسبوا أهله : أسروهم .
(3) كسد الصبى : لم يبع لقلة الراغبين فيه .
(4) وطن نفسه على الأمر وللأمر : هيأها لفعله وحملها عليه .
(5) القين : الحداد ، جمعه قيون وأقيان .

والسلاح ولم ينيِّف على العشرين من عمره حتى كان قد كسب لأمه ولنفسه شيئاً من مال ، واشتغل بحانوت يتخذ فيه صناعة الحديد والسلاح .

وقد نشأ الغلام نشأة أمثاله من هؤلاء الأخلاط الذين يُجلَبون إلى مكة أو تُلقى آباءهم إليها الأقدار . نشأ غلاماً لا يحسّ ثقل الرق ، ولكنه لا يذوق حلاوة الحرية ، وإنما هو شىء بين ذلك ، ليس كامل الرق وليس كامل الحرية . يرى من حوله شيوخاً سادة وشباباً مترفين ؛ ويرى من حوله شيوخاً أذلّة مستضعفين وشباباً تطمح نفوسهم وتقصر أيديهم وهممهم وأسبابهم عن بلوغ ما يطمحون إليه . وقد استقر فى نفوس الشيوخ المستضعفين إذعانٌ للقدر واستسلام للقضاء ، وأظهروا لسادتهم الإكبار وأضمروا لهم البغض والشنآن [1] . واستقر فى نفوس الشباب الطامحين غيظ لا تُطفأ ناره ، وحسدٌ لا تُكسَر حدّته [2] ، يرون أنهم ليسوا أقل من الشباب المترفين ذكاء قلوب ، وجلاء عقول ونفاذ بصائر [3] ، ولكنهم أقل منهم مالا وأضعف منهم قوة وأقصر منهم يداً ، قد أمسكتهم الحياة فى حال لا تلائمهم ولا يلائمونها ، وحيل بينهم وبين الرقى إلى خير منها ، وقضى عليهم أن يظلوا أتباعاً ، يحيون أتباعاً ويموتون أتباعاً ، لا أمل لهم فى سعة

(1) الشنآن : البغض والعداوة .
(2) لا تكسر حدته : لا تخف شدته ولا يسكن .
(3) نفاذ بصائر : سلامة تفكير .

ولا فى دعة (١) ولا فى مجد ولا فى ارتقاء . فهم كالجياد المشدودة التى تعلكُ (٢) شكائمها ، ويكاد المرح والنشاط يُخرجها من جلودها .

وكان هؤلاء الشباب إذا خلا بعضهم إلى بعض تحدثوا فى حالهم تلك فنوناً من الأحاديث ، كانت تنتهى بهم دائماً إلى الحسرة الدفينة والغيظ المكظوم . كانوا يقلّبون وجوههم فيما حولهم من القرى الحاضرة ، ومن أحياء العرب البادية ، فتنقطع بهم الآمال ، ويرتدّون إلى العجز واليأس . يرون أن الحياة فى مكة خير ما يمكن أن يتاح لهم ولأمثالهم من ضروب العيش . فى مكة الأمن والسلم ، والقوت يُكسبُ فى غير مشقة شاقة ولا جهدا عسير . وليس فى مكة مغامرة بالنفس ولا بالمال . وفى مكة الموسم الذى يجلب إليها وإلى ما حولها قبائل العرب وتجارتها من كل فج . فالحياة فيها وادعة خصبة ، ولكنها على ذلك مُغلقة إلا على الذين يُتيح لهم الغنى والمولد وشرف النسب أن يفتحوا أبوابها ويخرجوا منها إلى آفاق الأرض البعيدة ، ثم يعودون وقد ملئوا أيديهم بالمال ومتعوا أنفسهم بالرحلة والتنقل فى الأقطار . ولكن خباباً يلقى صديقاً له ذات يوم ، فلا يكاد يتحدث إليه ببعض ما كان يدور بينهما من حديث حتى يرى منه ازوراراً (٣) عن اليأس وانحرافاً عن الحزن وتعلقاً بأمل مشرق بعيد . يقول خباب لصاحبه : ما خَطْبُكَ ؟

(١) الدعة : الراحة وخفض العيش .
(٢) تعلك شكائمها : تمضغ الحديدة المعترضة فى فمها .
(٣) الازورار : العدول عن الشىء والانحراف عنه .

إنى لأرى من شأنك شيئاً لم أعهده ، وما أنكرتُ من صديق أحداً كما أنكرك منذ اليوم . فلا يجيبه صديقه بما تعوّد أن يُجيبه بمثله من رَجْع الحديث ، وإنما يتلو عليه : « اقرأ باسم رَبِّكَ الذى خَلَقَ . خَلَقَ الإنسانَ من علق (١) . اقرأ وَرَبُّكَ الأكرمُ . الذى علَّم بالقلَم . علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلمْ . كلا ، إنَّ الإنسانَ لَيطغَى أنْ رَآهُ استغنَى . إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى » .

فلا يكاد خبّاب يسمع هذا الكلام حتى تجرى فى بدنه رعدة تصطكّ لها أسنانه وركبتاه (٢) ، ويتركه صاحبه ساعة ، حتى إذا هدأت رعدته وثاب إليه أمنه واستقر جسمه ، قال لصاحبه : وَيْحَكَ ! أعدْ علىّ ما قلت ؛ فإنى أجد له فى قلبى حرّاً ولا يكاد عقلى يفهمه . ويعيد عليه صاحبه تلك الآيات مرة ومرة . وإذا خباب يردّ على صاحبه فيتلو :

« كلا إنَّ الإنسانَ ليطغَى أنْ رَآهُ استغنَى . إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى » . ما هذا القول ؟ إنه ليس من عندك ، أين سمعته ؟ أو ممن سمعته ؟ وهل لى إلى أن أسمع مثله من سبيل ؟ قال صاحبه : نعم ! إن شئت فاصحبنى إلى الأمين ؛ فإنه يتلو علينا هذا القول الذى يتنزل عليه من السماء .

(١) العلق : الدم .
(٢) تصطك : تضطرب وتضرب إحداها الأخرى .

ويُقبل أبو جهل ذات صباح على نادى قومه فى المسجد فيقول وهو يضحك ملء شدقيه[1] ويضرب فخذه بيده : يا معشر قريش ؛ اغدُوا إن شئتم على منظر عَجب . إنّ ابن الخاتنة قد صبأ . وإنا محرقوه بالنار . قبل أن ينتصف النهار .

١١

أقبل مسعود بن غافل مع الحجيج من هُذَيْل . فنزل فى مكة على عبد بن الحارث بن زُهْرَة بن كلاب . وكان بينهما صهرٌ . فأقام مسعودٌ عند أصهاره حتى انقضى الموسم . فلما همّ بالرجوع إلى موطنه من أرض هذيل قال لمضيفه : ألستَ ترى أن عهدك بأرض هذيل بعيد ، وأن لك عندنا ابنة لها عليك بعض الحق . وأن لابنتك هذه ابنة ليس حقها عليك بأقل من حق أمها ؟ قال عبد بن الحارث : صدقت ، إن عهدى بأرض هذيل لبعيد ، وإن لابنتىّ هاتين علىّ لحقًّا عظيما ، ولكنك تعلم أن تلك الحرب قد أفسدت ما بيننا وبين قيس من الأسباب . ومع أن تلك الحرب قد وضعت أوزارها[2] وجعلت أمورنا تستقيم قليلا قليلا . فإن قريشاً

(١) الشدق : زاوية الفم ، ويضحك ملء شدقيه : يضحك ضحكاً قوياً .
(٢) وضعت الحرب أوزارها : انقضت . وأوزار الحرب أثقالها .

لاتطرق نجداً إلا متحفظة محتاطة . قال مسعود : ماذا تقول ؟ إنكم معشر قريش أهل الحرم وحُماة البيت ، يأمن فيكم الخائف ، ويأوى إليكم الضائع ، ويجد الملهوف عندكم معونة وغوثاً ؛ فما ينبغى أن تكون الأرض كلها إلا حَرَماً لكم تأمنون فيه من خوف ولا تعدو عليكم فيه العاديات[1] . قال عبد بن الحارث : قد يكون ذلك كما قلت ، ولكنك رأيت قيساً تغزونا فى أرضنا ، لا ترجو لبيتنا ولا لحرمنا وقاراً[2] . فمن يؤمن قريشياً أن تغوله من قيس وأحلافه غائلة[3] ؟ قال مسعود وقد أحفظه[4] ما سمع : وإنك أنت لتقول ذلك ، ولك فى هذيل صهر . وتقول ذلك وا بنتاك عندى ! قال عبد : وَصَلَتْك رحمٌ ! فإنى لا أخاف شيئاً فى أرض هذيل ، ولا يخاف غيرى شيئاً فى أرض هذيل . ولكننا لا نبلغ أرضكم حتى نمرّ بحى من أحياء قيس أو أحلافها . قال مسعود : ويحك ! فإن شئت فاجعل بينك وبينى حلفاً يحميك من العاديات فى كل أرض تصل إليها يد هذيل ، ويحمينى من الغوائل فى كل أرض تبلغها يد قريش . قال عبد : قد فعلت .

ولم يعد مسعود إلى أرض هذيل وحده ، وإنما ذهب معه إليها

(١) تعدو عليكم العاديات : تنزل بكم المصائب . وعدا عليه : وثب ، وظلمه .
(٢) لا ترجو هنا : لا تخاف . والوقار : العظمة ، أى لا تهاب بيتنا ولا ترهبه .
(٣) تغوله : تهلكه وتأخذه من حيث لا يدرى ، والغائلة : الداهية المهلكة .
(٤) أحفظه : أغضبه .

حليفه وذو صهره عبد بن الحارث بن زُهْرَة بن كلاب ، فزار عنده ابنته هند ، وقد مات عنها زوجها ابن عبد وُدّ ، وزار بنتها أمّ عبد ، وقبل طفلها الصغير عبدالله بن مسعود . وأقام ما أقام فى أرض هذيل ، ثم انحدر إلى مكة ، فلم يطل فيها مقامه حتى أدركه الموت ، ونشأ الصبى الهذلىّ من قبل آبائه ، القرشى من قبل أمه ، فى أرض هذيل نشأة أمثاله من أهل البادية : حياة أدنى إلى الشظف[1] منها إلى اللين ، وأقرب إلى العسر منها إلى اليسر . ولا يكاد الصبى يبلغ أول الشباب حتى يفقد أباه ، وحتى تضيق به سبل العيش فى أرض نجد ، فيهبط مكة ليأوى إلى أخواله من بنى زُهْرَة . ويقيم ماشاء الله أن يقيم عزيزاً بأخواله وبالحلف الذى كان بينهم وبين أبيه . ولم يكن الشباب من أهل مكة يألفون حياة البطالة والترف إلا أن يكونوا من أبناء السادة والأغنياء ، وإنما كان سبيل الفتى من أوساط الناس فى قريش وأحلافها إذا بلغ السن التى يستطيع أن يكسب فيها القوت أن يسعى على رزقه كما يستطيع ، لا يرى بذلك بأساً ولا يجد فيه جُناحاً[2] . وإنما البأس كل البأس والجناح كل الجناح أن يعيش الفتى كلاً[3] على آبائه أو أخواله .

وقد سعى عبدالله بن مسعود على رزقه ، والتمس القوت من

(١) شظف العيش : ضيقه وشدته .
(٢) الجناح : الإثم .
(٣) الكل : العالة على غيره .

مصادره . فعرض نفسه على كثير من الناس ، وجرّب كثيراً من فنون العمل ، ولكن شيئاً واحداً راقه وأعجبه ولاءم طبيعته الهادئة ونفسه الراضية وقلبه المطمئن السليم ، فأصبح راعياً لعقبة بن أبى مُعيط ، يرعى عليه غُنيمات له فى ظاهر مكة ، يغدو بها مع الصبح ويروح بها مع الليل ، وينفق نهاره معها راضياً وادعاً ، قد خلا إلى نفسه ، فأمن غائلة الناس وأمن الناس غوائله .

وإنه لفى غنيماته تلك ذات يوم ، وإذا رجلان يقفان عليه ، وقد ظهر على وجهيهما شىء من خوف أخذ يذهب شيئاً فشيئاً ، فيستريح الرجلان ساعة مما أدركهما من الجهد ، وكأنهما قد اضطُرّا إلى كثير من العَدْو أمام قوم كانوا يجدّون فى آثارهما . وينظر الفتى إليهما صامتاً لا يقول لهما شيئاً . وما الذى يعنيه من أمرهما ، وهو إنما خلا إلى غنيماته تلك ليصرف نفسه عن أمر الناس ويصرف الناس عن أمره ! ولكن أحد الرجلين يسأله فيقول : يا غلام ، هل عندك من لبن تسقينا فإنّا ظماء ؟ قال الغلام : إنى مؤتمن ، ولن أسقيكما . ولو كانت هذه الغنيمات لى لما بخلت عليكما بما ينقع الغلة ويبل الصدى[1] . فينظر أحد الرجلين إلى صاحبه نظرة مطمئنة كأنه يقول له : لقد أصاب الغلام وآثر البرّ . ثم يحوّل الرجل نظره المطمئن

(١) ينقع : يروى . الغلة : العطش الشديد ، وكذلك الصدى .

إلى الغلام ويقول : فهل عندك من جَذَعة [1] لم يَنزُ عليها الفحل ؟ قال الغلام : أما هذا فنعم . ثم يمضى غير بعيد ويعود ومعه شاة ؛ فيعتقلها الرجل ذو النظر المطمئن ، ثم يمسح على ضرعها ويدعو بكلام يسمعه الغلام ولا يعقله . وينظر الغلام فإذا الضرع قد حفل وإذا الرجل الآخر يأتى صاحبه بصخرة متقعرة ، فيحلب فيها ويسقيه . ثم يسقى الغلام . ثم يشرب هو . ثم يقول للضرع : اقلصْ [2] . فيعود الضرع كعهده قبل أن تُعتقلَ الشاة .

هنالك يُبْهَتُ [3] الفتى فينعقد لسانه فلا يقول شيئاً ، وإنما يقف واجماً ذاهلا يردّد طرفه الحائر بين الرجلين . ويظل الفتى كذلك ، وقد انصرف عنه ذو النظر المطمئن وصاحبه ومضيا مستأنيين لا ينظران إليه ولا يقولان له شيئاً . ولم يَدْرِ الفتى أطال وقوفه ذلك الحائر أم قصر ، ولم يدر الفتى ماذا صنع ولا فيم فكر بقية يومه ، وإنما يرى نفسه حين تنصرف الشمس إلى مغربها مجررة أذيالها تلك الشاحبة التى تتعلق بأعالى الربى ورءوس الجبال ريثما تسحبها الشمس أو يمحوها الليل – يرى نفسه فى تلك الساعة رائحاً إلى مكة وبين يديه غنيماته يَهشّ [4] عليها بعصاه دون أن يفكر فيها أو يحفل بها ، وقد امتلأت نفسه بخاطر يُحسه ولا يتبينه . ثم يرى نفسه وقد آوى

(١) الجذعة : الصغيرة .
(٢) أقلص : ارتفع .
(٣) يبهت : يدهش ويسكت متحيراً .
(٤) هش الورق بعصاه : خبطه ليسقط .

الغنيمات إلى حظيرتها ، وأقبل يسعى هادئاً مطمئن الخطو ذاهل النفس مع ذلك مُشرّد العقل يلتمس عُقبة بن أبى مُعيط ، فيراه قد جلس فى صحن داره ومن حوله بنوه وبعض ذوى قرابته ، فيسعى الفتى حتى يقف منه غير بعيد ، ثم يقول : أى أبا الوليد ، أغنْد [1] مع غنيماتك غيرى من رقيقك وأحلافك ! فإنى عن رعيها راغب منذ اليوم . قال عقبة : وَيْحكَ يا فتى هذيل ! ماذا أنكرت منا أو منها ؟ قال الفتى : لم أنكر منكم ولا منها شيئاً ، ولكنى رغبت عن رعى الغنم . ثم ولّى لا يسمع لما كان يقال له ، ولا يحفل [2] بما كان يُظن به ، ولم يعد إلى بيته ، وإنما عاد إلى ذلك المكان الذى كان يرعى فيه غُنيماته ، واستحضر فى نفسه ذينك الرجلين يعروهما بعض الروع [3] ويثوب إليهما الهدوء قليلا قليلا ، ويستسقيانه فيأبى عليهما . واستحضر فى نفسه الشاة الجذَعةَ التى لا عهد لضرعها باللبن ، ثم رأى ضرعها يحفل [4] ، ورأى اللبن يشخب منه فى تلك الصخرة الجوفاء . ثم استحضر ذوق ذلك اللبن الذى شربه ، فلم يذكر أنه شرب مثله قط . وحاول أن يذكر ذلك الكلام الذى دعا به الرجل ذو النظر المطمئن وهو يمسح ضرع الشاة فلم يذكر منه شيئاً ؛ فهاله

(١) أى اجعل غيرى يغدو مع غنيماتك .
(٢) يحفل : يبالى ويهتم .
(٣) يعروهما : ينزل بهما . الروع : الفزع .
(٤) يحفل : يتجمع فيه اللبن بكثرة .

ذلك ، ورابه من نفسه كلها ريب [1] ؛ فلم يحرص قط على شيء حرصه على أن يحفظ ذلك الكلام ، وكان عهده بنفسه ألا يسمع شيئاً إلا استقرّ فى قلبه كأنه نُقش فيه نقشاً . فيقول الفتى لنفسه : إن لهذا الرجل ذى النظر المطمئن وصاحبه وكلامه لشأناً . وقد طال مكث الفتى بهذا المكان ساكتاً ساكناً يدير طرْفه من حوله ، ثم يقلب طرفه فى السماء لا يكاد يفكر فى شيء ، أو لا يكاد يحقق شيئاً مما يفكر فيه ، وإنما يرى فى نفسه أول الأمر ، ثم من حوله بعد ذلك ، صورة الرجل المطمئن معتقلا شاته تلك ماسحاً ضرعها متكلماً بذلك الكلام الذى سمعه ولم يعقله ، والذى يحاول أن يذكره فلا يجد إلى ذكره سبيلا .

وينصرف الفتى عن مكانه ذاك حين تقدّم الليل ، ولكنه لا يعود إلى مكة ، وإنما يهيم فيما حوله من الأرض مستأنساً إلى وحشته حريصاً على وحدته ، لا يحس جهداً ولا تعباً ولا حاجة إلى النوم ، ولا يحس ظمأ ولا جوعاً ، وإنما يجد فى فمه ذوق اللبن ، ويرى فى عينه صورة ذلك الرجل المطمئن الوادع ، ويسمع فى أذنيه صوت ذلك الرجل ممتلئاً عذباً يجرى بكلامه ذاك الذى لا يذكره كما يجرى الينبوع الرقيق الصافى بالعذب الزلال . وأنفق الفتى ليلته تلك لم يظله سقف ولم يؤوه مضجع . حتى إذا تجلت شمس النهار

(1) رابه : أوقعه فى الريب وهو الشك والتهمة وقلق النفس واضطرابها .

عاد إلى مكة حين يغدو منها الرعيان . ولم يستقر قراره حتى عرف ذلك الرجل المطمئن وصاحبه ، ومكانهما فيسعى حتى يجد محمداً رسول الله . فإذا دنا منه ألقى النبى إليه نظرة مطمئنة ، وابتسم له . والفتى يدنو منه حتى يبلغه ، ثم يجلس بين يديه ، ثم يقول له فى صوت رقيق يضطرب اضطراباً خفيًّا : علّمنى من هذا الكلام الذى سمعته منك أمس . قال النبى مبتسما له : إنك غلام معلَّم . ومنذ ذلك الوقت استقر فى نفس الفتى أنه لم يُخلق لنفسه ولا لأهله ولا لغنيات عقبة بن أبى معيط ، وإنما خلق ليلزم محمداً هذا الأمين فيسمع منه ويحفظ عنه ويدعو بدعوته .

وكان الفتى خفيفاً نحيفاً دقيق الجسم سريع الحركة عظيم النشاط . فلم يكد يلزم رسول الله أياماً ويسمع منه ويحفظ ما قال حتى رأته قريش فى أنحاء مكة متنقلا بذكر محمد وكلامه يذيعه فى كل وجه ، ويُفشيه فى كل مجلس ، ويتحدث به فى كل مكان . وكان خفته وسُرعته مصدر عناء لقريش ، تراه فى هذا المكان فلا تكاد تهمّ به حتى تنظر فإذا هو قد استخفى وانتقل إلى مكان آخر ، لا يدرون كيف انتقل إليه . فكان المتتبعون للنبى وأصحابه يرون هذا الفتى فى كل مكان ولا يكادون يظفرون به مع ذلك فى أى مكان ! حتى قال أبو جهل ذات يوم : ما ضقت بأحد من أصحاب محمد كما أضيق بهذا الفتى الهذلى ،

أراه فى كل وجه مذيعاً دعوة محمد مفسداً بها قلوب الناس ، ولا أجد لى عليه سبيلا . ولو قد ظفرت به لما أبقيت عليه [1] . قال عُتبة ابن أبى ربيعة : مهلا أبا الحكم ، لا تبطش بهذا الفتى الهذلىّ ، فإن زُهرة لن تُسلمه ، وإنك إن تنله بسوء تؤلب هذيلا كلها [2] على قريش وتقطع عليها طريقاً لا تحرص على شىء كما تحرص على أمنه وسلمه . قال أبو جهل : هو ذاك ، ولكن أقسم مع ذلك لأذيقنّ هذا الفتى بعض ما يكره إن قدرت عليه . ولم يقدر عليه أبو جهل إلا بأخرة حين أذن النبى لأصحابه فى الهجرة إلى أرض الحبشة.

مر أبو جهل ذات يوم غير بعيد من المسجد ، فرأى رهطاً من الناس قد تحلّقوا [3] حول رجل ضئيل نحيل ، وخيل إليه من بعيد أنه يقول لهم وأنهم يسمعون له ، فاستأنى [4] أبو جهل فى مشيته ، وضاءل من شخصه ، وتمسح بالجدران ، ومضى كذلك مستخفياً أو كالمستخفى ، حتى فجأ القوم ، فوقف منهم غير بعيد ، يراهم ولا يرونه ، وتسمّع لصوت ذلك الرجل الضئيل النحيل ، فإذا صوتٌ عذب يتلو كلاماً عذباً ، فيصغى أبو جهل بنفسه كلها ليسمع ما يجرى به هذا الصوت العذب من هذا الكلام العذب ، وإذا ابن

---

(١) أبقيت عليه : تركته حياً .

(٢) تؤلب هزيلا : تثير عداوتها .

(٣) تحلقوا : تجمعوا فى حلقة .

(٤) استأنى : تمهل .

مسعود يتلو على من حوله هذه الآيات الروائع من سورة الفرقان :

« وَعِبادُ الرَّحْمنِ الذين يَمشونَ على الأرْضِ هَوْناً وإذا خاطَبَهمُ الجاهلونَ قالُوا سَلاماً . والذين يبيتونَ لربِّهم سُجّداً وقياماً . والذين يَقولونَ ربّنا اصرف عنّا عذابَ جهنّمَ إنّ عذابها كان غراماً ، إنّها ساءَتْ مستقرّاً ومُقاما . والذين إذا أنفقوا لم يُسرفُوا ولم يقتُروا وكانَ بينَ ذلكَ قواماً . والذين لا يَدْعونَ معَ الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفسَ التى حرمَ الله إلا بالحقّ ولا يزنون ومنْ يفعلْ ذلكَ يلقَ أثاماً . يضاعف لهُ العذابُ يومَ القيامة ويَخلُدْ فيه مهاناً . إلا منْ تابْ وآمنَ وعَمِل عملاً صالحاً فأولئكَ يُبدّلُ اللهُ سيئاتهمْ حسنات وكانَ اللهُ غفوراً رحيما . ومَنْ تابَ وعَملَ صالحاً فإنّه يتوبُ إلى الله متاباً . والذينَ لا يَشْهدُونَ الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللغو مَرّوا كراماً . . . » .

وكان أبو جهل يسمع لهذا الذكر فيخفق له قلبه وتخشع له نفسه . ولو قد أرسل طبعه على سجيته لقال كما سمع بعض أولئك الرهط ، يقول لعبدالله بن مسعود فى صوت تحتبس فيه الزفرات : إنى والله لأُحبّ أن أكون من هؤلاء . ولكن أبا جهل لا يُرسل طبعه على سجيته ، وإنما يدعو حسده وكبرياءه وأنفته . ثم ينصب على أولئك الرهط كما ينصبّ الصقر على فريسته وهو يصيح : بؤساً لكم من رهط سوء ! ما رأيت كاليوم جراءة . إنكم لتجتمعون

حول هذا الرجل وتستمعون له ، وليست أندية قريش منكم ببعيد . فما يمنعكم أن تقتحموا علينا المسجد وأن تتحلقوا فيه ! ولم يكد أولئك الرهط يرون ذلك الشخص البشع ، ويسمعون ذلك الصوت المنكر حتى تفرقوا سراعاً . وظل ابن مسعود قائماً مكانه لا يَريم[1] . فيدنو منه أبو جهل مُغضباً وهو يقول : ويلك ياابن أمّ عبد ! ما تزال تفسد علينا أحلافنا ورقيقنا ، وما أراك منتهياً حتى تصيبك منى بائقة[2] . وهمّ ابن مسعود أن يرد عليه مقالته ، ولكن أبا جهل لا يمهله ، وإنما يعلوه بالقوس فيشجه . وقد أخذ الدم يتحدّر على وجهه ، ولكنه لم يحفل بذلك ، وإنما يسرع فى خفة إلى أبى جهل وهو يقول : فأما إذا فعلت ما فعلت فخذها وأنا فتى هذيل ! ثم يدفع فى صدر أبى جهل بإحدى يديه ويلطم وجهه بيده الأخرى ، ثم ينصرف عنه مستأنياً متمهلا ، ويتركه قائماً واجماً قد أخذه الذهول ، لم يكن يُقدّر أن حليفاً من أحلاف قريش يستطيع أن يدفع فى صدره ويلطم حُرّ وجهه . ثم تثوب إلى أبى جهل نفسه فيصيح بابن مسعود : لن تُفلت بها يا راعى الغنم . قال ابن مسعود : ولن تُفلت بما فعلت يا عدوّ الله .

ويمضى كلا الرجلين إلى أصحابه . فأما ابن مسعود فيلقى رهطاً من أصحاب النبى ، فيقول لهم وعلى ثغره ابتسامة وفى عينيه دمعتان

(١) لايريم : لايبرح ولا ينتقل .

(٢) البائقة : الهلاك والشر .

تترقرقان : لا مُقام لى بمكة منذ اليوم ؛ فقد لطمت وجه أبى جهل . والله إنى بالهجرة لفرح ، وإنى بها لمحزون : فيها ثواب الله ومغفرته ، وفيها فراق رسول الله دهراً لا أدرى أيقصر أم يطول . وأما أبو جهل فيعود إلى نادى قومه وقد انكسرت نفسه واستخذى ضميره ، ولكنه على ذلك يُظهر الغضب والكبرياء ويقول لأهل ناديه : ويحكم يا بنى مخزوم ! إن كانت لكم بقية من عزة فأمكنونى من ابن أم عبد ، فإنه قد أتى إلىّ ذنباً لا يغسله إلا دمه . ويلتمس القوم عبد الله بن مسعود فى مكة وما حولها فلا يظفرون به ولا يقدرون عليه ولا يرى أبو جهل خَصمه إلا يوم بدر .

١٢

أقبل سلاّم بن حبير القُرَظى من الشام ، كعهده فى كل عام ، بتجارة عظيمة فيها فنون من العروض وضروب من المتاع ، بعضه مما تخرج الشام ، وبعضه مما يصنع أهل الجزيرة ، وبعضه مما تحمله الروم إلى دمشق وبُصرَى وتبيعه من قوافل العرب واليهود ليحملوه إلى الأرض البعيدة التى لا تصل إليها يد قيصر ولا يبلغها سلطانه فى نجد والحجاز وفى تهامة واليمن . ولم يكد سلاّم بن حبير

يستقر فى بنى قُرَيظة ويريح نفسه من سفر شاق طويل ، حتى عرض متاعه ذاك المختلف للناس ، فأقبل عليه أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وأقبل عليه مَنْ حول يثرب من يهود ينظرون ويشترون . ولم تمض أيام حتى كان سلاّم بن حبير قد باع تجارته وأفاد منها مالا كثيراً . ولولا هذا الصبى الذى عرضه سلام على العرب فرغبوا عنه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيت نفس سلام كل الرضا ، ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئناً مغتبطاً مجولا فى أحياء يثرب مرسلا رقيقه وأحلافه فيما حول يثرب من أحياء العرب واليهود وفى أعماق البادية ، يجلبون له من المتاع الذى يحمله إلى الشام متى أقبل فصل الرحلة إلى الشام . ولكن هذا الصبى كان غُصَّة [١] فى حلقه وحسرة فى قلبه ، قد اشتراه فى بُصرى من بعض الكلبيين بثمن بخس زهيد ، وقدّر فى نفسه أنه سيبيعه من بعض أهل يثرب فيربح فى ثمنه ذاك الذى أداه مثليه أو أمثاله . ولكن أهل يثرب من العرب واليهود لم يعهدوا سلاّماً جالباً للرقيق أو مُتَّجراً فيه . فلما رأوه يعرض عليهم هذا الصبى ويلح فى عرضه ويرغّب فى شرائه أنكروا منه ذلك وظنوا به الظنون . وقال قائلهم : إنما اشترى سلاّم هذا الغلام لنفسه ، فلا نأمن أن يكون قد رأى فيه من العيب أو الآفة ما زهّده فيه ، فهو يبيعنا ما ليس له فيه أرب . وكان الصبى بادى السقم ظاهر

(١) الغصة : ما يعترض حلق الشارب . والمراد عائقاً وحائلا دون غبطته .

الضر ، كأنه قد لقى من الذين اتّجروا فيه شرًّا ونُكراً . ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع أن يُفصح عن ذات نفسه . ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وإنما كان إذا كلمه سيده أو غير سيده من الناس التوى لسانه بألفاظ فارسية لا يفهمها عنه أحد . وكان سلاّم يزعم للناس أن هذا الصبى ذكى الفؤاد[١] صَناعُ اليد موفور النشاط إذا صلحت حاله ووجد من الطعام ما يقيم أوده . وكان يزعم لهم أنه سليل أسرة فارسية شريفة أقبلت من إصْطَخرا حتى استقرت فى الأُبُلّة ، فملكت أرضاً واسعة وزارعت فيها النبط ، وملكت تجارة عريضة كانت تُصرّفها فى أطراف العراق . فإذا سئل من أبناء هذه الأسرة عن أكثر من ذلك لم يُحِرْ جواباً[٢] ، وإنما يقول : زعم لى من باعنى هذا الصبى أن العرب اختطفوه حين أغاروا مع الروم على الأبلة ، فباعوه من بنى كلب ، وتعرّض به بنو كلب فى بصْرَى يريدون أن يبيعوه لبعض تجار العرب أو اليهود . وقد رأيته فرقّ له قلبى ومالت إليه نفسى ، وقدّرت أن سيكون له شأن أى شأن ، فاشتريته فيما اشتريت من المتاع والعروض .

هنالك كان الناس يقولون له : فلم لا تُمسكه عليك[٣] إذن ؟ فيقول : إن ما أنفقت من المال فيه أحب إلىّ وآثر عندى منه .

(١) صناع : ماهر حاذق فى عمله .
(٢) لم يرد جوابا .
(٣) تمسكه عليك : تحتفظ به لنفسك .

وماذا أصنع بصبي لا أحسن القيام عليه ولا يُحسن هو أن يقوم على نفسه . وليس لى أهل أكله إليهم ؟ والصبي مع ذلك ذكى القلب صناع اليد موفور النشاط إن صلحت حاله وأصاب من الطعام ما يقيم أوده . انظروا إلى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران على شيء . إنه سريع الحس يختطف ما يرى دون أن يُثبته[1] . وانظروا إليهما كيف تتوقدان كأنهما جَذْوتان . ولكن الناس كانوا يسمعون ويضحكون وينصرفون ويتركون سلاّماً وفى قلبه حسرة على ما أنفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح . وتمر ثُبيتة بنت يَعار الأوسية بسلاّم ذاتَ ضحى وهو يعرض صبيه هذا فى بعض أسواق يثرب ، فلا تكاد تنظر إلى الصبي حتى ترحمه ، ثم لا تكاد تُطيل النظر إليه حتى تقع فى قلبها الرغبة فى شرائه . قالت ثبيتة : ما اسم صبيك هذا يا ابن حبير ؟ قال سلاّم : زعم من باعه لى من بنى كلب أن اسمه سالم . قالت : سالم ابن من ؟ قال سلام : لا أدرى ؛ ولكنى اشتريته من كلبي يسمى مَعقلا ، وزعم لى أن أسرته أسرة شريفة أقبلت . . . قالت ثبيتة : أقبلت من إصطخر فنزلت الأبلة وزارعت النبط وصرّفت تجارتها فى أطراف العراق ، قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب ؛ فإنى له مشترية ، فبكم تبيعه منى ؟ قال سلاّم وقد ابتسم قلبه ورضيت نفسه ، ولكنه استبقى فى وجهه الجد والحزم : فإنى لا أريد إلا ما أديت من ثمن

(١) دون أن يثبته : دون أن يعرفه حق المعرفة .

وما أنفقت عليه منذ اشتريته . وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود إلى دارها بالصبي وقد ربح اليهودى فأحسن الربح ، وربحت هى بشراء هذا الصبي ربحاً لا يقوم بالدراهم ولا بالدنانير .

ذلك أنها لم تشتره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وإنما آثرت بشرائه الخير والبر والمعروف ، لم تُرد إلى شيء آخر . وكانت تقول لنفسها فى نفسها وهى عائدة بالصبي إلى دارها : بُعداً لهذه الحياة التى لا يرحم الإنسان فيها الإنسان[1] ، ولا يرأف القوى فيها بالضعيف ، ولا ترِقّ فيها القلوب للأمّ حين تفقد صبيها ، وللصبي حين ينشأ لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ولا فصيلة يأوى إليها . وكانت تقول لنفسها فى نفسها وهى عائدة بالصبي إلى دارها : لو أن لى صبياً مثله فعدا عليه العادون ومَضوا به فى غير مذهب من الأرض[2] كيف كنت ألقى ذلك ! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه ! وهل كنت أسلو عن صبيي آخر الدهر ! هيهات ! لو كان لى صبي مثله وعدا عليه العادون وذهبوا به فى غير مذهب من الأرض لذكرته مصبحة وممسية ، ولذكرته يَقظى ونائمة ، ولتبعته نفسى وذهبت فى تصور حاله المذاهب ، ولما اطمأننت للعيش ولا نَعِمت بالحياة ولا استمتعت بطيبات هذه الدنيا . وكانت ترى أم الصبي وقد انتزع منها ابنها وهى تشهد انتزاعه ، أو اختطف ابنها وهى لا ترى اختطافه ، وكانت

(١) بعداً له : دعاء عليه ، أى أبعده الله .

(٢) عدا : وثب . مذهب : طريق .

ترى تولّه[1] تلك الأمّ وتفجعها وحسرتها التى لا تخمد ولوعتها التى لا تنطفئ ودموعها التى لا تغيض . وكانت تقول لنفسها فى نفسها وهى عائدة بالصبى إلى دارها : هذا غلام قد اختطف من ملك كسرى ، لم يستطع جند كسرى أن يحموه ولا أن يَرُدّوا عنه العاديات ، فكيف بنا نحن فى يثرب ، هذه المدينة الخائفة التى يحيط بها اليهود والأعراب من جميع أقطارها ، والتى يسلّ بعض أهلها السيف على بعض ، والتى لا يأمن أهلها أن تدور عليهم دائرة ، أو تنوبهم نائبة ، أو يُلِمّ بهم خطبٌ من الخطوب ؟ فلما بلغت الدار واستقرت فيها ، وَعُنِيَتْ بالصبى حتى أمن بعد خوف وأنس بعد وحشة وطعم بعد جوع ، قالت لنفسها فى نفسها : هيهات أن أتخذ الأزواج أو أن يكون لى من الولد من يصيبه مثل ما أصاب هذا الصبى ، ومن أذوق فيه من الحزن والثكل مثل ما ذاقت فى هذا الصبى أمه تلك الفارسية ونساء أمثالها كثير . ولو استجابت الحياة لثبيتة لأنفقت أيامها معنية بهذا الصبى الفارسى ، ولاتخذته لنفسها ولداً أو شيئاً يشبه الولد . ولكن الناس يقدّرون ويدبرون . والأيام تجرى على غير ما قدّروا ودبروا .

فقد عُنيت ثُبيتة بسالم حتى ربا جسمه ونما عقله وأصبح غلاماً ذكى القلب سريع الحس حديد اللسان كما قدّر اليهودى ،

(١) التوله : الحزن الشديد .

أو أكثر مما قدّر . وكانت ثُبيتة له محبة وبه مغتبطة وعنه راضية . وقد خطبها الرجال من الأوس والخزرج ومن أشراف البادية حول يثرب ، فامتنعت عليهم ، واعتلت على أهلها فى ذلك حتى أعيتهم . ولكن وفد قريش يمرون بيثرب مُنصرَفهم من الشام ذات عام ، فيمكثون فيها أياماً . ويسمع أبو حذيفة هُشيم بن عُتبة بن ربيعة بحديث ثبيتة هذه وقصة غلامها ذاك ، فيعجبه ما يسمع ، ثم يحب أن يتزيد من أخبارها فَيُلِمّ بقومها ويقول لهم ويسمع منهم ، فتقع ثبيتة من نفسه موقعاً حسناً ، مع أنه لم يرها ولم يسمع لها ، وإنما سمع عنها فرضى . وإذا هو يخطب هذه الفتاة الأبية ، فتمتنع عليه أول الأمر ، حتى إذا علمت بمكانه من قريش وبأنه من أشرافها وذوى المنزلة الرفيعة فيها ، وبأنه من أصحاب البيت وأهل الحرم الذى رُدّ عنه أصحاب الفيل ، والذى لا يعدو عليه إلا الفجرة الآثمون ، شكت يوماً ويوماً ، ثم أصبحت مستجيبة لخطبة هذا المكى . ويعود أبو حذيفه بأهله وبسالم إلى مكة فى وفد قريش ؛ فلا يكاد يستقر فيها حتى ينكر من أمرها بعض الشيء . لقد أصبح فغدا على أندية قريش ، ثم أمسى فراح إلى أندية قريش ، ولكنه يعرف من أمر هذه الأندية كثيراً ، وينكر من أمرها كثيراً . تريد نفسه أن تطمئن وأن تأمن وأن ترضى ، كما تعودت من قبل ، ولكنها لا تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الرضا سبيلا . يحس أبو حذيفة كأن شيئاً ينقص هذه الأندية ، وكأن حدثاً قد حدث

في مكة لا يدرى أيسيرٌ هو أم خطير ، ولكن شيئاً قد حدث فتغيّر من أمر قومه تغييراً يحسه ولا يحققه . ثم يتلمس بعض صديقه فى اندية قريش فلا يجدهم . يسأل : أين عثمان بن عفان الأموى؟ وأين طلحة بن عبيدالله التيمى ؟ وأين فلان وفلان من ذوى مودته ؟ فلا يجيبه قومه بالتصريح ، وإنما يُؤْثر بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوى بعضهم ألسنتهم بأحاديث لا تُفصح ولا تُبين . ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا . ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته ، ووضح له وجهُ الحزم من أمره . إن صديقه أولئك بمكة لم يفارقوها ولم يبرحوا أرض الحرم ، فماله يسأل عنهم ولا يُلِمّ بهم ؛ ولا يكاد هذا الخاطر يخطر له حتى يقصد قصْدَ فلان أو فلان من أولئك الصديق.

وقد ألمّ بعثمان بن عفانَ وكان له خليلا على ما كان بينهما من تفاوت فى السن . كان عثمان قد تخطّى الأربعين أو كاد ، وكان أبو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعدُ ، ولكن الود كان بينهما قديماً متيناً ، زادته الصحبة فى الإسفار قوة وأيداً . فلما بلغ أبو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقاه صديقه بما تعوّد أن يتلقاه به من البشر والبشاشة ومن الرفق واللين . ولكن أبا حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام . قال أبو حذيفة : لقد التمستك(1)

(1) التمستك : طلبتك وبحثت عنك .

أبا عمرو فى أندية قريش منذ عاد الوفد إلى مكة فلم أجدك ، فما عسى أن يكون قد حبسك عن قومك ؟ قال عثمان : لم أنشطْ لهذه الأندية ولا لما يدور فيها من حديث . قال أبو حذيفة : فهل أنكرت من قومك شيئاً ؟ وهنا سكت عثمان ولم يُجب . فأعاد عليه أبو حذيفة مقالته ، فأمعن عثمان فى الصمت . قال أبو حذيفة : إن لك أبا عمرو لشأناً ولا واللاّت والعزىّ . ولكن عثمانُ لم يكدْ يسمع قَسمه هذا حتى لوى وجهه(1) . وينظر أبو حذيفة فإذا وجه صاحبه قد اربْدّ وظهر فيه غضبٌ لم يألفه منه قط . قال أبو حذيفة : وَيْحك أبا عمرو ! إنك لتعرف ما بينك وبينى من الود ، وإنك لى لخليل وفىّ أمين ، فأظهرنى على ذات نفسك . قال عثمان فى صوت وادع لين : فإن شئت أن تستبقى ما بيننا من الود فلا تذكر اللات والعزّى وهذه الآلهة التى لا تغنى عنكم شيئاً . هنالك وجم(2) أبو حذيفة وجمة قصيرة ، ثم قال : وَيْحك أبا عمرو ! فإنك إذن قد صبوت ؟ قال عثمان فى صوت أشد دعة وأعظم ليناً : لم أصْبُ أبا حذيفة ، وإنما اهتديت . إنك فتى حازم رشيد لم تتقدم بك السنّ بعد ، ولكن رأيت الدنيا وطوّفت فى أقطار الأرض وبلوت أخبار الناس وجرّبت الأحداث والخطوب ، أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك ومثلى لأنصاب(3) من خشب وصخر صوّرها الناس بأيديهم ، ويستطيع

(1) لوى وجهه : أماله وأعرض . (2) وجم : سكت وعجز عن التكلم .
(3) الأنصاب : جمع نصب ، وهو ما عبد من دون الله من الأصنام .

من شاء منهم أن يجعلها جُذاذاً[1] ؟ قال أبو حذيفة: ما أراك أبا عمرو إلا رشيداً ، ولكنى لم أفكر فى هذه الأشياء قط ، وإنما وجدت قومنا يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنيعهم . قال عثمان : وإذا أسفر الهدى وحصحص الحق[2] ؟ قال أبو حذيفة : فقد وجب علينا أن نهتدى ونتبع الحق ، متى تستصحبنى إلى محمد ؟ قال عثمان : الآن إن شئت .

وأمسى أبو حذيفة مسلماً ، ودخل بإسلامه على ثُبيتة ؛ فلم تكد تسمع له حتى آمنت بمحمد وما جاء به . وسمع الغلام سالم حديثهما فمالت إليه نفسه ، وإذا هو يؤمن كما آمنا . ولم يتقدّم الليل حتى زادت بيوت الإسلام فى مكة بيتاً .

وتمضى أيام قليلة وإذا ثبيتة تعلم أن محمداً يدعو إلى إعتاق الرقيق ، ويعد الذين يَفكّون الرقاب مغفرة من الله ورحمة ورضواناً . فتدعو إليها غلامها ذاك الفارسى وتقول له : اذهب سالم فإنى قد سيبتك لله عزّ وجلّ ، فوال من شئت . قال سالم لأبى حذيفة : فهل لك فى أن تكون لى وليّاً ؟ قال أبو حذيفة : هيهات ! لن أتخذك مولى ، وإنما أنت ابن لى منذ اليوم .

(1) جذاذاً : قطعاً .
(2) أسفر : أضاء . حصحص : بان وظهر .

١٣

دخل عبد الله بن سُهيل بن عمرو على أخته سَهلة بنت سُهيل زائراً عند زوجها أبى حُذيفة بن عُتبةَ بن ربيعة . فرأى منها إقبالا عليه أكثر مما تعود أن يرى منها منذ حين ، ووقع ذلك من نفسه موقعاً حسناً ، فجعل يحدث أخته بما شاء من أحاديث قومه يريد أن يسرها ويُفكهها : يعبث بالشيوخ وذوى الأسنان من قريش طوراً ، ويتندّر بمرح الشباب من قريش طوراً آخر ، وأخته تسمع له فتضحك وتعجب ، وتَهمّ أن تشاركه فى بعض حديثه وأن تذكر معه أيام الصبا ، ولكنها لا تلبث أن تَكفّ نفسها عن ذلك وأن تُؤثر الصمت ، وتدعوه إلى أن يقول . وقد لاحظ عبد الله أن أخته على نشاطها له وإقبالها عليه ربما عرض لها شىء من ذهول بين حين وحين ، كأنما كانت تغيب عنه ثم تثوب إليه .

وقد أنكر الفتى من أخته نشاطها وذهولها جميعاً ، ولكنه أسرّ ذلك فى نفسه ولم يُبده لها ، ومضى فيما كان يسوق من حديث ضاحكاً مضحكاً ، حتى إذا أنفق معها ساعة غير قصيرة همّ

أن ينصرف . وقامت أخته تريد أن تسعى معه مشيعة إلى فناء الدار . ولكن عبد الله ينحنى على أخته ، يريد أن يضمها إليه ، وأن يُقبلها . فتَذعَرُ سهلة وتتراجع شيئاً . وينظر إليها عبد الله فى شىء من حيرة ودَهَش . وتنظر هى إلى عبد الله فى دهش وحيرة . ثم يعود عبد الله إلى مكانه فيجلس . وتظل سهلة قائمة واجمة كأنها لا تدرى ماذا تصنع ولا تعرف كيف تقول . قال عبد الله بعد هنيهة : إن أمرك لعجيب منذ اليوم يا سهلة . أليس قد أزمعتم الهجرة من غد ؟ قالت سهلة وقد ظهر عليها الروع : أى هجرة ؟ هنالك أغرق عبد الله فى الضحك . ثم قال : ما رأيت كاليوم فتاة غرة[1] تريد أن تمكر بأخيها . إن هجرة أصحاب محمد إلى أرض الحبشة ليست سراً مكتوماً . وإنما هو حديث الناس فى مجالسهم وحديث الملأ[2] من قريش فى أنديتهم . وإن قريشاً لو شاءت لأخذت على أصحاب محمد طرق هجرتهم[3] . ولكنها لا تشاء . ولعلها لا تكره هذه الهجرة . فقد جعلت قريش تسأم محمداً وأصحابه ، وتسأم الكيد لهم والمكر بهم والإلحاح على المستضعفين منهم بالفتنة والعذاب . وقد فرحت قريش بهجرتهم هذه ، وقال الملأ منها شر يُصرَفُ عنا وراحة تُهدى إلينا . وإن أعين قريش ليقظة ساهرة على محمد

(١) الغر : من لا خبرة له .
(٢) الملأ : السادة الأشراف .
(٣) أخذ عليه الطريق : تعرض له ومنعه .

ونفر من أصحابه ؛ فهؤلاء رهائن قريش لا تُخلى بينهم وبين الطريق إن أرادوا أن يدفعوا أنفسهم إلى الطريق . فأما المستضعفون وأشباه المستضعفين فليس لقريش فيهم أرَبُ .

وكانت سهلة تسمع لهذا الحديث وآيات الروع والحزن والرضا تختلف على وجهها ، وهى مع ذلك قائمة تسمع من أخيها ولا ترد عليه جواباً . قال عبد الله : وقد ظننت إذن وظن زوجك أن قريشاً عنكما غافلة . هيهات! إن عُتبةَ والوليد بن عتبة ليعلمان من أمر أبى حذيفة مثل ما يعلم سهيل وعبد الله من أمر سهلة ؛ وإن قريشاً لتعلم من أمركما مثل ما يعلم أبواكما ، ولكن قريشاً لا تحبسكما لأن لها فى أبويكما وأخويكما أرباً . ولكننا نحن لا نحبسكما أيضاً ؛ لأنا نُؤثركما بالحب فى أعماق نفوسنا ودخائل قلوبنا ، ونكره لكما حياة التستر والاستخفاء هذه التى تحتملانها فى مشقة وعناء أى عناء ، ولا نضيق بأن تجدا فى هجرتكما هذه أمناً بعد خوف وفرجاً بعد حرج . ولولا أن تقول قريش : ضَعُفَ سهيل فلم يُطقْ على فراق ابنته صبراً لما زرتك الآن وحدى ولزارك أبوك فنظر إليك قبل فراق ليس يدرى ولست تدرين أيطول أم يقصر ، ولكنه يرى كما أنك ترين أوله ، ولا يعرف كما أنك لا تعرفين آخره . وليس يعنينى ما تقول قريش فىّ ، وعسى أن أجد فى مقت قريش لى رضا وفى استخفافها بى حبوراً . أسمعت الآن عنى ؟ قالت سهلة : ألم ترَ أنكَ منذ دخلت علىّ إنما تتحدث وحدك وأنا أسمع ولا أرد عليك ؟ قال

عبد الله : بلى ! وهذا بعض ما أثار فى نفسى ما ترين من العجب . ولكنى لم أفهم هذا الذعر الذى اشتمل عليك حين أردت أن أضمك وأن أقبلك مُودِّعاً . قالت سهلة ولم تستطع أن تمنع ابتسامة حلوة ارتسمت على ثغرها وضحكة عذبة جرت فى صوتها : فإنك مُشرك ، وما أحبّ مس المشركين . قال عبد الله وقد ظهر فى وجهه الحزم : أوَقدْ بلغ بكم حب محمد والاستجابة لدينه أن تصُدّوا عن إخوانكم ؟ قالت سهلة وقد زالت ابتسامتها عن ثغرها وجرى فى صوتها حزم صارم لم يثبت له قلب الفتى وإنما اتصل له تخفقانه : لو قد أحببت محمداً واستجبت لدينه لعرفت أن الصد عن الإخوان والآباء فى سبيله ليس شيئاً . تَعلّمْ(١) يا أخى أنا نحب الله ورسوله أكثر مما نحب آباءنا وأمهاتنا وإخواننا ، وأكثر مما نحب الدنيا كلها وما فيها من كل شىء ، وأكثر مما نحب أنفسنا . ولقد حدثتنى آنفاً بأن قريشاً راضية عن هجرتنا ، فتعلمْ أنا نحن عنها غير راضين . ولولا أن أذن لنا فيها محمد ودعانا إليها لآثرنا الفتنة والعذاب والموت قريباً منه على الدعة والسعة والراحة والرَّوح والأمن والرضا بعيداً عنه فى أى قطر من أقطار الأرض . قال عبد الله وقد أطرق مفكراً : هو ذاك إذن ! محمد أحبّ إليكم من آبائكم وأمهاتكم وإخوانكم ومن الدنيا كلها ومما فيها من كل شىء ! ومحمد أحب إليكم

(١) تعلم : اعلم .

من أنفسكم ؛ قالت سهلة : ولو قد أحببتَ محمداً كما نحبه لعرف قلبك الحب الذي يُعطى ولا يريد أن يأخذ ، والذى لا يبتغى لنفسه ثمناً من لذة الجسم أو نعيم النفس . ويدخل أبو حذيفةَ فيرى عبد الله مطرقاً مغرقاً فى التفكير ، ويرى امرأته سهلة قائمة تنظر إليه نظرات حازمة قوية ، ولكن فيها شيئاً من أمل وشيئاً من حنان . فينظر أبو حذيفة إلى امرأته ثم ينظر إلى عبد الله ثم يقول فى صوت عميق : هل تنبئينى يا سهلة بأن الله قد أنزل السكينة على قلب أخيك ؟ وهمّتْ سهلة أن تجيب ، ولكن عبد الله يرفع رأسه ويسبق أخته إلى الحديث فيقول : السكينة ! السكينة ! . . . ما عسى أن تكون هذه السكينة ؟ إن لكم لألفاظاً تديرونها فى أفواهكم وتقرعون بها آذاننا ، ولكنا لا نحصّل لها معنى . هذه تزعم أنكم تحبون محمداً أكثر مما تحبون آباءكم وإخوانكم وأنفسكم ، وأنت تسألها هل أنزل الله على قلبي السكينة . ما عسى أن تكون هذه السكينة ؛ وما عسى أن يكون محمد قد صنع بقلوبكم حتى استأثر بها من دون آبائكم وإخوانكم وأنفسكم ؟ قال أبو حذيفة فى صوت رفيق : لم يصنع محمد بقلوبنا إلا أنه نقاها من الغىّ ، وجلاها من الضلال ، واستنزل عليها السكينة التى ملأتها أمناً ورضا وثقة وأملاً وحالت بينها وبين الخوف والشك والقنوط . ثم يتلو قول الله عز وجل : «إن الذينَ لا يَرجُونَ لقاءَنا ورَضُوا بالحياة الدُّنيا واطمأنُّوا بها والذينَ هُمْ عَنْ آياتنا غافلونَ . أولئكَ مأواهُمُ النارُ بما كانُوا يَكسبونَ » .

ولا يكاد الفتى يسمع هاتين الآيتين حتى تأخذه رِعْدَةٌ عنيفة ويتفصّد[١] جبينه عرقاً . ويمضى أبو حذيفة فى تلاوته فيقرأ : « إن الذينَ آمنوا وَعَملوا الصّالحات يَهديهم رَبُّهم بإيمانهم تَجرى من تَحتِهمُ الأنهارُ فى جنات النعيم . دَعوَاهُمْ فيها سُبحانَكَ اللهمّ وَتحيّتهم فيها سَلامٌ وآخرُ دَعوَاهُم أنِ الحمدُ لله ربّ العالمينَ » .

ولايبلغ أبو حذيفة آخر هذه الآيات حتى يهدأ رَوْع الفتى ويثوب إلى قلبه الأمن ، وينظر إلى أبى حذيفة مبتسماً ، ويقول فى صوت تَشيع فيه دُعابة حلوة : وَيْحك ! إنى أحسّ كأن سَكينتكم هذه تسعى إلى قلبى . أذاهبٌ أنت بى أبا حُذيفة إلى محمد لأتلقاها منه ؟

وأمسى عبد الله مسلماً قد عاد إلى أخته وجلس إليها وإلى أبى حذيفة وسالم يسمع منهم القرآن . تقول له سهلة مُنصرَفه عنها حين تقدم الليل : أمُهاجرٌ أنت معنا يا أخى ؟ قال عبد الله : عزيزٌ علىّ أن تنأى بكم الدار ، ولكنى لم أسمع من رسول الله القرآن وحديثه إلا اليوم ، وإنى لأوثر أن ألزمه ما وسعنى لزومه ، فاذهبوا راشدين .

وأصبح أبو حذيفة فانطلق بامرأته وابنه سالم فيمن انطلق

(١) يتفصد : يسيل .

إلى أرض الحبشة من المسلمين . حتى إذا كانت الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة كان عبد الله بن سهيل أحد المشاركين فيها . وقد جلس سهيل فى داره محزوناً كئيباً ، وافتقدته قريش حين رأت تخلفه عن أنديتها أياماً ، فأقبل عُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل عمرو بن هشام فاستأذنوا عليه . ولو قد أطاع نفسه لمنعهم الإذن ، ولكن للسادة من قريش حقوقاً لا يُلتوى بها . فيدخل القوم على سهيل ، ولا يكادون يتحدثون إليه حتى يروا حزنه وضيق صدره . يقول عتبة بن ربيعة : وَيْحك أبا عبد الله ! لقد هاجر ابنى فما ساءتنى هجرته ، فيقول سهيل : وهل جرّ علينا الشرّ كله إلا ابنك ! لم يكفه أن يُصبئ ابنى حتى أصبأ أخاها وانصرف بهما جميعاً إلى أرض النجاشى . قال أبو جهل : لو عرفت قريش كيف تؤدب سفهاءها لما أصابكما ما تريان ، ولو استجابت لى قريش لاجتثت الشجرة من أصلها[١] . فيقول شيبة بن ربيعة : على رسلك[٢] أبا الحكم ! أما هذه فلم يأت إبّانها[٣] بعدُ .

وما زال القوم بسهيل حتى يخرجوه ويردوه إلى ما ألف منهم وألفوا منه . ويمضى من الأيام والأشهر ما شاء الله أن يمضى ، وهؤلاء نفر من مهاجرة الحبشة يعودون إلى مكة ، منهم من يُعلن

(١) اجتث الشجرة : قلعها .
(٢) على رسلك : تمهل .
(٣) إبانها : وقتها وحينها .

عودته ومنهم من يستخفى بها . وعاد فى هؤلاء النفر عبدالله بن سهيل ؛ فيلقاه أبوه أحسن لقاء ، ويتحدث إليه حديث البشاشة والبشر ، والفتى متحفظ متأثم ، كأنه يرى فى الاستماع لحديث أبيه بأساً . ولكن سهيلا يضرب إحدى يديه بالأخرى ، فما هى إلا أن يستجيب له أعبُد شِداد يُحيطن بعبد الله ، فيوثقونه ثم يحملونه سجيناً إلى أعماق الدار ، ومنذ اليوم يُذيقه أبوه من الفتنة شيئاً عظيماً .

١٤

لم تعرف مكة فى تاريخها الطويل القديم يوماً كذلك اليوم المشهود ، وإن كانت قد عرفتْ بعده أياماً مشهودة ليست أقلّ منه شدة ونُكراً .

كانت بلداً آمناً ، لا يعرف أهله كيداً ولا مُكراً ولا بغضاً ولا عداء ، وإنما يستقبلون أمورهم راضين عنها مبتهجين بها مطمئنين إليها . يكون بينهم التنافس فى المال والاستباق إلى المجد ، ولكنهم على ذلك لا يبغى بعضهم على بعض ، ولا يبطش بعضهم ببعض ، وإنما تجرى أمورهم على الدعة والإسماح . وأقصى ما يبلغ الشر بينهم أن يقول بعضهم لبعض قليلا أو كثيراً مما يكره من القول ، ثم لا يلبثون أن يعود بعضهم على بعض بالعافية ، وأن يُهدى بعضهم إلى بعض ألوان البر والمعروف . وقد عرفت العرب القاصية والدانية

ذلك من أمرهم ، فهوت (١) إليهم الأفئدة ، وعطفت عليهم القلوب ، واتصلت بهم الآمال ، وتعلقت بهم النفوس ، حتى أصبح بلدهم وماحوله من الأرض حرَماً آمناً يأوى إليه الخائف ويلوذ به الملهوف (٢) . ولكن مكة تُصبح فى ذلك اليوم وقد أظهرت لها السماء ابتساماً ، فملأت بطاحها وجبالها ورُباها بأشعة الشمس المشرقة الرائعة ، ولكنها أضمرت لها عُبوساً أىّ عبوس ، فملأت قلوب نفر من أبنائها بالظلمة المظلمة والكيد المفضى بأهله إلى شرّ ما ينتهى إليه الناس .

أصبحت قريش فى ذلك اليوم ، فغدا الملأ منها إلى أنديتهم فى المسجد ، وأخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، إلا نفر منهم لم يذهبوا إلى المسجد ولم يحضروا أندية قومهم ، ولم يشغلوا أنفسهم ببيع أو شراء ، ولم يسروا (٣) عن أنفسهم بصيد أو طرد أو مجُون . وإنما شُغلوا بشىء غير ذلك كله : شُغلوا بتهيئة العذاب وجه النهار ، وشُغلوا بشهود العذاب وسط النهار ، وشغلوا بالتحدث عن العذاب آخر النهار ، ولكنهم لم يتحدثوا عنه وحدهم ، وإنما تحدثت عنه قريش كلها ؛ ولم تَبقَ فى مكة دار إلا ذكر فيها أمر ياسر وامرأته وابنه ، وأمر صُهيب ، وأمر خَباب ، وأمر بلال . وكانت أحاديث قريش عما صُبّ على هؤلاء الرهط من العذاب

(١) هوت : مالت وأحبت .
(٢) الملهوف : الحزين ذهب له مال أو فجع بحميم ، والمظلوم ينادى ويستغيث .
(٣) يسرى عنه نفسه : يرفه ويكشف عنها الهم .

مختلفة أشدَّ الاختلاف : فأمَّا شيوخ قريش وذوو أحلامها فكانوا يجدون فى سيرة أبى جهل وأضرابه غلوًّا فى الشرّ وإسرافاً فى القسوة ، ولكنهم على ذلك كانوا يعللون أنفسهم بأن هذه الشدة قد تخوف محمداً وأصحابه وتردهم إلى شىء من القصد والأناة ، وإلى أنها قد تَرْدَع(1) الرقيق والمستضعفين وتُريهم ما ينتظر الذين يَصْبُون منهم إلى محمد وأصحابه من البأس والضر والعذاب . فكانت ضمائرهم تُنكر وقلوبهم تسكت ، وألسنتهم تعرف . وأما الشباب من قريش فكان أكثرهم يرى فى هذا البدْع لوناً مستحدثاً من التسلية والتسرية والاشتغال عن النفس وعما تعودت أن تتلهى به من ألوان العبث والمجون . وفى غرائز الناس ميلٌ إلى الشرّ ، واستجابةٌ للنكر ، واستعذاب للعذاب حين يَمس غيرهم ويدفعهم إلى فنون من الألم وضروب من الحركات التى يثيرها الألم ، وإلى ألوان من الشكاة التى يبتعثها الألم .

وفى قلوب الشباب قسوة وخفة ، وفى أحلامهم نَزَق وطيش(2) . فهم ينظرون إلى من يُمتحن فى بدنه ، ويأتى من الحركة والقول ما يُسليهم ويُلهيهم ، على أنه متاع لأبصارهم ونفوسهم ؛ ولا يقدّرون أن هذا العذاب يمكن أن يُصَبّ عليهم ، وأن هذه الحركات والشكاة يمكن أن تصدُرَ عنهم ، فتُضحكَ منهم قوماً آخرين . ولو قد وضع الإنسان نفسه موضع الذين يُصَبّ عليهم العذاب

(1) تردع : تكف وترد .
(2) النزق والطيش : الخفة .

لجنَّبَ الناسَ شرًّا كثيراً . فكان أولئك الشباب من قريش يتحدثون ببراعة أبى جهل فيما كان يخترع من ألوان الفتنة والمحنة راضين عنها مُعجبين بها . وكانوا يتحدثون عن احتمال أولئك الرهط للفتنة فى أنفسهم بالجلد والصبر والأناة فى كثير من الإعجاب . كما كانوا يتحدثون فى عبث وسخرية بما كانت أجسام أولئك الرهط تأتى من الحركات حين يمسها العذاب .

قال الحارث بن هشام لابن أخيه عكرمة بن أبى جهل : ألم تر إلى سُمَيّةَ كيف كان جسمها يتلوّى حين كانت السياط تُلهبه بغير حساب ، دون أن يَفترّ فمها عن صيحة أو أنّة أو شهيق وهى التى كنا نُثيرها إلى الخوف أو نثير الخوف إليها بأيسر ما كنا نأتى من الحركات ، نعبث بها ونسخر منها حين نراها تثور كأنما دُفعتْ من الأرض بلولب خفى ! قال عكرمة : لم أعجبْ لشىء كما عَجبتُ لزوجها الشيخ الذى مُزق جسمه بالسياط وحرّق بالنار ليذكرَ الآلهة بخير ، فلم يظفر منه أبى إلا بشتم الآلهة والاستهزاء بها . أما ابنه عمار فقد سكت صوته ، وسكن جسمه للعذاب ، وارتسمت على ثغره ابتسامة حلوة مُرّة ، ما أدرى أكانت تصور الرضا أم كانت تصور الغيظ ! ولكنها ارتسمت فى نفسى أشدّ مما ارتسمت على ثغره ؛ وما أرى أنها ستغيب عنى آخر الدهر . قال صَفْوَان بن أمية : فكيف لو رأيتما بلالاً ذلك الحبشىّ والفتية من الأحرار والرقيق يتنازعون جسمه يأخذ كلٌّ منهم بطرف ، كأنما

كانوا يريدون أن يقتسموه بينهم ، وهو فى أثناء ذلك لا يئن ولا يشكو وإنما يثنى على محمد ويذكر إلهه ذاك بالخير . قال خالد بن الوليد : أما أنا فقد رأيت من صُهيب عجباً : رأيت القوم يعذّبونه بالنار وينوشونه[1] بالرماح ويُلهبون جسمه بالسياط ، وهو على ذلك يتحدث إليهم حديث من لا يحفل بما كانوا ينالونه به من الأذى . وربما اشتد عليه البأس فعقد لسانه عن القول برهة ، وأجرى على جبينه شيئاً من عرق ، ثم لا يلبث أن تثوب إليه نفسه ويعود إلى التحدث إلى معذّبيه فى بعض أمرهم ، كأنهم لم ينالوه بمكروه . وما يزالون به يعذبونه بالحديد والنار والسياط ، وما يزال بهم يعذبهم بهدوئه وثباته وتحدّثه إليهم فى أيسر أمورهم ، حتى إذا أملّهم أو كاد يُملهم ضاعفوا له العذاب ، وخرجوا فى ذلك عن أطوارهم ، فيسعى إلى صُهيب شىء من ذهول ، ثم يأخذه شىء يشبه السكر ، فيمضى فى حديثه ، ولكنه يقول للقوم غير الصواب . ويعرف القوم أنهم قد بلغوا منه بعض ما كانوا يريدون ، فيكفّون[2] عنه مكاويهم ورماحهم وسياطهم ، وأشهد لقد انصرفت عن هؤلاء القوم وإنى لبعض أمرهم لكاره . قال الحارث بن هشام : اسكتْ لا يسمعك ابن عمك فيصيبك منه بعض ما تكره .

(١) ينوشونه : يتناولونه ويطعنونه .

(٢) يكفون : يمنعون .

كذلك كان الشباب من قريش يُعجبون بأولئك الرهط[1] المعذّبين ويتعجبون منهم ، يستهزئون بهم طوراً ويعطفون عليهم طوراً آخر .

وأما المستضعفون والرقيق فكانوا يرون الشر ويُعينون عليه حين يُطلبُ إليهم أن يُعينوا عليه ، تكرَهه نفوسهم وترضى عنه ألسنتهم ؛ قد ملأ الخوف أكثرهم ، وتسرّب الحب والإشفاق إلى قلوب فريق منهم ؛ فهم ينتهزون الفرص ويتربصون بقريش الدوائر[2] ، ويتحدثون إلى أنفسهم ، وربما تحدث بعضهم إلى بعض ، إذا خلا بعضهم إلى بعض ، بأن الخير كل الخير عند محمد وأصحابه . وبأن الخير كل الخير فى أن ينحازوا إليهم . فالضعف إلى الضعف قوة . ومن يدرى ! لعل الله أن ينتصف لهم ولأمثالهم بمحمد وأصحابه من أولئك البغاة الظالمين . وأما المسلمون الذين صُرف عنهم العذاب ونحيتْ عنهم الفتنة فكانوا يشهدون وفى نفوسهم ألمٌ وأملٌ ، وفى قلوبهم حزنٌ وثقة ، قد اطمأنوا إلى أن العاقبة لهم ، واستيقنوا بأن الله منجز وعده ، ولكنهم على ذلك يرحمون إخوانهم ، وربما تمنوا لو كانوا مكانهم فاحتملوا عنهم بعض ما يحتملون من الأذى .

وربما كان أصدق وصف لمكة حين أمسى المساء من ذلك اليوم أن أكثر أهلها كانوا حائرين ، يرون الفتنة ولا يدرون أيعرفونها ينكرونها ! لأنهم لا يعرفون أخيرٌ هى أم شرّ ! وأن أقل أهلها

(١) الرهط : الجماعة دون العشرة .

(٢) يتربص به الدوائر : ينتظر نزول الدواهى .

كانوا قد صَدَقُوا الله ما عاهدوا عليه ، فرضيت نفوسهم واطمأنت قلوبهم واستيقنوا أن العاقبة للمتقين . ولو كشف الغطاء عن أهل مكة لرأوا حين تقدم الليل من ذلك اليوم أن من حول مكة أعياداً يحفل بها الشياطين وقد استخفهم الفرح واستهواهم الطرب ، ورأوا أصحاب محمد يعذبون أشد العذاب وأقساه ، فغرّهم بالله وبأنفسهم الغرور ، وظنوا أن فتنة هؤلاء الرهط ستحفظ لهم سلطانهم على مكة ، وستمكن لهم فى قلوب قريش .

وأصبح أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فتحدثوا إليه من أمر الفتنة بما علموا ، ولكنه تحدث إليهم من أمرها بما لم يعلموا ، لا لأنه شهد الفتنة ، أو رأى كيف كانت تُصَبّ على المستضعفين من أصحابه ، بل لأن أمر الفتنة كله قد أوحى إليه .

وخرج النبى وأصحابه فتفرّقوا فى أحياء مكة يسعَى بعضهم هنا ويسعى بعضهم هناك ، يلتمسون فضلا من ربهم ، ويريدون فى أكبر الظن مُواساة لهؤلاء المستضعفين الذين كانوا يُفتنون عن دينهم ويعذّبون فى الله . ويمشى النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض بطحاء مكة وقد وضع يده فى يد عثمان بن عفان ، وما يزالان يتماشيان حتى يبلغا آل ياسر ، وقد سطحوا على الأرض مُوثقين ، ووُضعت على صدورهم الصخور الثقال ، وجعل المشركون يمسونهم بالنار حيناً بعد حين ، وربما وخزوهم بالخناجر والحراب ، وثلاثتهم سكوت لا ينطقون حرفاً ، والمشركون قد ملأ قلوبهم الغيظ ؛ لأنهم

لا يبلغون منهم شيئاً . وقد أنكروا صمتهم الذى اتصل منذ أخذ فى تعذيبهم مع الضحى ، حتى جعلوا يشتطون عليهم فى البأس[1] ليستخرجوا منهم أنة أو شكاة . ولكنهم ماضون فى الصمت ، قد ثبت الله قلوبهم ، وصرف عن نفوسهم الجزع والهلَع . فإذا مرّ النبى وصاحبه بهؤلاء الرهط المعذبين سمع المشركون صوت ياسر لأول مرة من يومهم ذاك ، سمعوا صوت ياسر لا يتجه إليهم وإنما يتجه إلى النبى فيقول : الدهر هكذا يا رسول الله . قال رسول الله : أبشروا آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة . هنالك يسمع المشركون صوت سُمَية لأول مرة من يومهم ذاك ، يسمعون صوت سمية لا يتجه إليهم وإنما يتجه إلى النبى فيقول : أشهد أنك رسول الله ، وأشهد أن وعدك الحق . وهنالك يسمع المشركون صوت عمار لأول مرة من يومهم ذاك ، يسمعونه لا يتجه إلى أبويه ، ولا يتجه إلى النبى وصاحبه ، وإنما يتجه إليهم هم فيقول : عذبونا يا أعداء الله ما شئتم ؛ فإن موعدنا الجنة وأنوفكم راغمة. هنالك يخرج المشركون عن أطوارهم[2] ويَصُبّون على أولئك الرهط من العذاب ما ليس إلى وصفه سبيل .

ويمضى أبو بكر فى بعض بطحاء مكة فيرى بلالا وقد عُذّب حتى ملت قريش تعذيبه . عذّبوه بالنار والماء ، وعذّبوه بالحديد

(١) يشتطون عليهم فى البأس : يبالغون فى قسوتهم .

(٢) خرج عن طوره : جاوز حده وقدره .

والسياط ، طرحوه على الأرض فى الرمضاء[1]،وأثقلوه بالصخر ، يريدونه على أن يذكر آلهتهم بخير فلا يسمعون منه إلا : أحَد ، أحَد . يقول له أمية بن خلف : اذكر آلهتنا بخير يا بلال يُرفعْ عنك العذاب ؛ فيجيب : إنّ لسانى لا يطاوعنى . ثم يمضى فى ذكره قائلا : أحد ، أحد . فيملّ أمية بن خلف وأصحابُه فيضعون عنه أثقاله ثم يقيمونه ، ثم يضعون الحبال : حبلا فى إحدى ذراعيه وحبلا فى ذراعه الأخرى ، وحبلا فى إحدى ساقيه وحبلا فى ساقه الأخرى ، ثم يدعون الصبية ويُلقون إليهم الحبال ، ويأمرونهم أن يَعدُوا ببلال حتى يجهدوا أنفسهم ويجهدوه . ويفعل الصبية ما أمروا ، فيَعدُون به إلى اليمين ، ويعدون به إلى شمال ، ويَعدُون به إلى أمام ، ويعدُون به إلى وراء ، وهم يتصايحون ويتضاحكون ، وأمية بن خلف وأصحابه ينظرون ويتعابثون ، وبلال لا يحفل بشىء من ذلك ، وإنما هو يتبع العادين به حيث يَعدُون ، لا يقاوم ولا يتمنع ولا ينفكّ لسانهُ عما أخذ فيه من ذكر : أحد، أحد ، أحد ، أحد ، وقد بلغ الجهد من الصبية حتى جعلوا يلهثون ، ثم تراخت أيديهم وألقوا بحبالهم إلى الأرض . وظلّ بلال قائماً ماضياً فى ذكره : أحد ، أحد . حتى يبلغ الغيظ من أمية وأصحابه ، فيدفع بعضهم فى صدر بلال حتى يُلقوه على الأرض إلى ظهره .

(١) الرمضاء : الأرض الحامية من حرارة الشمس الشديدة .

فيسقط ويُسمعُ لسقوطه صوتٌ مُروِّع ، ولكن ذكره متصل : أحد ، أحد . ويَهمّ أمية أن يبطش به ليسكت هذا الصوت ويقطع هذا الذكر ، ولكن أبا بكر يعرض له قائلا : وَيْحكم ! فيم تعذبون هذا الرجل ؟ قال أمية : وما أنت وذاك يا ابن أبى قحافة ؟ عبدٌ لنا نَصنَعُ به ما نشاء . قال أبو بكر : هو عبد الله قبل أن يكون عبدك يا أمية . إنك إن تأت على نفسه تأثمْ وَتُضيِّعْ مالكَ ، فهل لك فى شىء خير من ذلك ؟ قال أمية : وما ذاك ؟ قال أبو بكر : أشترى منك هذا الرجل،واحتكم فى ثمنه . قال أمية وقد ضجر ببلال وتأديبه وتعذيبه : قد فعلتُ ، فأدّ إلىّ ثمنه سبع أواق . قال أبو بكر : فخلّ سبيله وَرُحْ معى إلى حيث أؤدّى إليك مالك . قال أمية : أدّ إلىّ مالى أخلّ عنه . قال أبو بكر : وَيحكَ يا أمية ! متى عهدتَنى ألتوى عليك بالدَّين ؟! قال أمية وقد استحيا : صدقتَ ، خُذ غلامك وأرسلْ إلىّ ثمنه متى شئت . قال أبو بكر : إنما هى روحتى إلى أهلى ثم يؤدّى مالك إليك .

وأخذ أبو بكر بلالاً من يده فانطلق به إلى داره ، وهنالك رفق به وَخففَ عنه بعض ما وجد من الضر ، وأرسل إلى أمية ماله . وَتلبَّثَ فى داره يرفق ببلال وَيتحدّثُ إليه ، ويقرأ عليه من آيات الذكر ، حتى إذا عاد رسوله وعرف أبو بكر أن أمية قد قبض ماله التفت إلى بلال وابتسم له وقال : انطلق بلالُ فأنت حر .

وأمسى أبو بكر فلقى رسول الله وأنبأه بما رأى من فتنة بلال ، وبأنه لم يستطع أن يستنقذه حتى اشتراه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : الشركة يا أبا بكر . قال أبو بكر فإني قد أعتقته يارسول الله !

ومرّ قومٌ آخرون من أصحاب النبي بحيّ آخر من أحياء قريش فيرون ، ويا هول ما يرون ! ناراً عظيمة قد أُججتْ ، ويرون رجلا قد شدّ وَثاقه(1)، ويرون قوماً يحملونه ويُدنونه من النار حتى توشك أن تُحيط به ، ثم يختطفونه اختطافاً فيبعدون به عن النار ، ثم يُقيمونه أمامهم مشدوداً مقيداً ، ثم يتقدّم أحدهم فيدفع برجله فى صدره دفعة تُسقطه إلى ظهره وهم يتضاحكون ، ثم يعودون فيفعلون به مثل فعلهم الأول . يقول له قائلهم : اذكرْ آلهتنا بخير وقعْ(2) فى محمد ودينه أو لنميتنك هذه النار وهذه الأرض ! فلا يسمعون منه إلا : أشهد أن محمداً رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق . وما يزالون يقدّمونه إلى النار ويؤخرُونَهُ عنها ، ويدفعونه إلى الأرض ثم يردّونه قائماً حتى يُغشى عليه . هنالك يقول بعضهم لبعض : أبقوا عليه يا معشر قريش، لا تأتوا على نفسه ، فيسألكم عنه حلفاؤه من زُهْرة .

ويعود أصحاب النبي فينبئون اخوانهم بما رأوا من أمر خباب

(1) الوثاق : ما يشد به من قيد وحبل .

(2) قع فى محمد : سبه .

ابن الأرتّ . وتمضى أمور قريش والمستضعفين من المسلمين على هذا النحو الأيام ثم الأشهر ثم السنين ، لا تبلغ قريش من هؤلاء المستضعفين شيئاً فى دينهم ، إلا أن تكون كلمة الله قد حقت على بعضهم فيفتَنَ عن دينه ويكفر بعد إسلام ، أو أن يكون الله قد آثر بعضهم بالحسنى فيختاره لجواره ويَجعل له عنده مقاماً محموداً .

اجتمعت قريش ذات يوم لأمر عظيم حين انتصف النهار ، زعم لها أبو جهل أنه بالغٌ من ياسر وأهله ما يريد ؛ فقد عذبهم حتى أشفَوا على الموت ، ولن يتركهم حتى يذكروا آلهة قريش بخير ويقعوا(1) فى محمد بما يكره . قال عُتبة بن ربيعه : هيهات أبا الحكم ؛ إن ياسراً رجلٌ جَلدٌ(2)، وإنه ما علمت ليؤثر الموت على أن يُبلغك ما ترضى . قال أبو جهل : فإن ذكر آلهتنا بخير وذكر محمداً بسوء ؟ قال عُتبة بن ربيعة : هيهات يا أبا الحكم ! إنما هى أمانى ، وما أرى إلا أنك قد أزمعت أن تأتى على نفس هذا الشيخ . قال أبو جهل : فإن ذكر آلهتنا بخير وذكر محمداً بسوء ؟ قال عتبة : فلك عشرون من الإبل . قال شيبة بن ربيعة : ولك منى مثلها . قال أبو جهل : إن مالكما عليكما لهين . قال عتبة :

(1) يقعوا فى محمد : يسبوه ويعيبوه ويغتابوه .

(2) جلد : شديد قوى ، صبور .

فإن أتيتَ على نفس ياسر . . قال شيبة : دون أن تبلغ منه ما تريد ونريد ؟ قال أبو جهل : فاحتكما إذن . قال عتبة : لن نحتكم ولن نرزأك(١) فى مالك شيئاً ، وحسبنا أن تظهر من نفسك على عنادها. وأقبل الذين استخفهم هذه المناظرة فشهدوا عذاب ياسر وسُميّة وعمّار .

ولم تر قريش من العذاب فى مكة مثل ما رأت ذلك اليوم، ولكنها على ذلك لم تظفر بشىء مما أملتْ . أقبل أبو جهل ومعه أصحابه ، فرأى الناس أنطاعاً من أَدم (٢) يسع كلّ نطع منها رجلا وقد مُلئتْ ماء ، ورأوا ناراً مؤججة ومكاوىَ قد أُحمىَ عليها ، ورأوا تلك الأسرة قد شُدّ وثاق كل منها وأُلقى ثلاثتهم فى جانب من الطريق كما يُلقَى المتاع غير ذى الخطر . فلما بلغ أبو جهل وأصحابه مكان العذاب أمر غلمانه فوضعوا بين يديه ياسراً وسمية وعماراً، وألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله . فألهب أجسامهم بالسياط ، ثم أذاقها مسّ النار ، ثم صبّ عليها قرب الماء ، ثم عاد فيهم سيرته تلك مرّة ومرّة ، ثم أمر فغطوا فى الأنطاع التى ملئت ماء حتى انقطعت أنفاسهم أو كادت ، ثم ردّهم إلى الهواء ، وانتظر بهم حتى أفاقوا ، وتسمع لما ينطقون به بعد أن ثاب إليهم شىء

(١) لن نرزاك فى مالك : لن نأخذ منه شيئاً ينقصه .

(٢) الأنطاع : جمع نطع وهو بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس . والأدم : الجلد . والمقصود هنا قرب الماء .

من قوة ، فإذا هم يذكرون الله ويُثنون على محمد . قال أبو جهل لسمية وقد بلغ منه الغيظ أقصاه : لتذكرُنّ آلهتنا بخير ولتذكرُنّ محمداً بسوء أو لتموتِنّ . تعلمى أنك لن ترىْ مساء هذا اليوم إلا أن تكفرى بمحمد وربه . قالت سمية بصوت هادئ متقطع قليلا : بؤساً لك ولآلهتك ! وهل شىء أحبّ إلىّ من الموت الذى يريحنى من النظر إلى وجهك هذا القبيح ! هنالك تضاحك عتبة وشيبة بن ربيعة ، وأخرج الحنق أبا جهل عن طوره فجعل يضرب فى بطن سمية برجله وهى تقول له فى صوتها الهادئ المتقطع : بؤساً لك ولآلهتك ! ويُجن جنون أبى جهل ، فيطعن سمية بحربة كانت فى يده فتشهق شهقة خفيفة ثم تكون أول شهيد فى الإسلام .

يقول ياسر : قتلتها يا عدوّ الله ! بؤساً لك ولآلهتك ! ويقول عمار : قتلتها يا عدو الله بؤساً لك ولآلهتك ! ليمتلئْ قلبك غيظاً وحنقاً ! فإن رسول الله قد ضرب لها موعداً فى الجنة . قال ياسر : أشهد أن وعد الله حق . ولكن أبا جهل لم يمهله ، وإنما يضرب فى بطنه برجله فيشهق ياسر شهقة ثم يُصبح ثانى شهيد فى الإسلام .

قال عُتبة وشيبة بن ربيعة : ألم تُحكمنا إن لم تبلغ من ياسر وامرأته شيئاً ؟ فسكت أبو جهل ، وقال الملأ من قريش : بلى! نحن على ذلك شهداء . قال عتبة : فينبغى أن تطلقَ هذا الرجل وأن تخلىَ بينه وبين الحرية ليوارى أبويه .

وراح أبو جهل من يومه ذلك إلى أهله مَغيظاً مُحنقاً منكسر

النفس ، لا يدرى أغاظه أن أفلت منه هذان الشهيدان دون أن يبلغ منهما ما أحبّ ، أم غاظه أن صبرهما وثباتهما وإقدامهما على الموت فى غير جزع ولا هلع ولا اضطراب إنما هو انتصار لمحمد ودينه الجديد على قريش ودينها القديم ، فأصحاب محمد يموتون فى سبيله وفى سبيل دينه ، وضعفاء قريش وأشرافها وأحلافها يسعون إلى محمد فيؤمنون له ، يستخفى بذلك أكثرهم ويعلن ذلك أقلهم ، ولكنهم يسعون إليه ويؤمنون له على كل حال ، وهؤلاء المستضعفون وهؤلاء الرقيق الذين كانوا يؤمنون لأشراف قريش بالسيادة ويدينون لهم بالطاعة ويرهبونهم غائبين وشاهدين ، قد أخذوا يتمردون عليهم ويثورون بهم وينكرون سيادتهم وسلطانهم ، يبادونهم بذلك أحياناً ويخفون ذلك عليهم أحياناً أخرى ، فإذا أخذتْ منهم قريش هذا الحرّ أو ذاك الرقيق لم يهابا ولم يرهبا ولم يُذعنا ولم يستكينا ، وإنما استقبلا العذاب والفتنة وقلوبهما راضية ونفوسهما مطمئنة وعلى ثغريهما ابتسامات تُحفظ وتملأ النفوس حنقاً(١) . أغاظ أبا جهل هذا كله ، أم غاظه أن محمداً يسمع ويرى ويعلم من أنباء الفتنة والعذاب ما تعلمه قريش كلها ، فلا يهاب ولا يرهب ولا يترك شيئاً مما هو فيه من نشر دينه الجديد والدعوة إليه ، ثم هو لا يكتفى بذلك وإنما يخرج مع بعض أصحابه فيواسى من يعذبون من أتباعه بما يقول له من هذا الكلام الذى يلتهمونه التهاماً ، والذى يزيدهم

(١) تحفظ : تغضب وتغيظ . الحنق : شدة الاغتياظ .

على الفتنة والمحنة صبراً وتثبيتاً . وأى سخر من قريش أشدّ من هذا السخر ! وأىّ استفزاز لقريش أشدّ من هذا الاستفزاز ! وأىّ ازدراء لسلطانها أشدّ من هذا الازدراء ! وأىّ استهزاء بالملأ من أشرافها أشدّ من هذا الاستهزاء ! وما عسى أن تقول العرب فى أقصى الأرض وأدناها حين تعلم أن فى جنب قريش شوكة أعيتْ سادتها وقادتها وذوى أحلامها ، فلم يستطيعوا لها انتزاعاً ، وإنما ثبتت لكيدهم ومكرهم ، ثم جعلتْ تُنبت من حولها شوكاً صغاراً ، إن لم تكن مثلها قوة وحدة وأيداً فهى تنشر الأذى وتُشيع الألم ، وتوشك أن تجعل جسم قريش كله عليلاً لا أملَ له فى برء أو شفاء ؟

أغاظ هذا كله أبا جهل ، أم غاظه أن الملأ من قريش رأوا أن شدّته لم تغن عنهم ولا عن آلهتهم شيئاً ، وإنما انتهت إلى القتل الذى لا تحبه قريش ، والذى لا يزيد محمداً وأصحابه إلا استمساكاً بدينهم وصبراً فيه ؟ أم غاظه أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة قد ظفرا به وظهرا عليه وشمتا بما كان يُظهر من حزم وصرامة وجد ، ويوشكان بعد هذا الإخفاق أن يستأثرا بسمع قريش وقلبها وحبها وقيادها ؟ أم غاظ أبا جهل كلّ هذا مجتمعاً ؟ لست أدرى ، ولكنى أعلم أنه راح إلى أهله مغيظاً محنقاً يظهر الغضب ويخفى انكسار النفس . وقد ساء لذلك خُلقه ، فلم يستطع أحد من أهله أن يقول

(١) الملأ : السادة ، الجماعة الأشراف .

له شيئاً أو يسمع منه شيئاً . لم يجلس إلى طعام ولم يسمع لحديث ، وإنما خلا إلى نفسه فأنفق ليلة ثائرة حزينة كئيباً لم يذق فيها النوم إلا غراراً(١) .

كذلك راح أبو جهل إلى داره وأنفق ليلته فيها . فأما عمار فقد حُمل إلى داره ، وحُمل معه أبواه : حملهم قوم من قريش فيهم المسلم وفيهم غير المسلم ، قد نَسوا أو تَناسوْا ما بينهم من خصومة ، وذكروا أن بينهم مكروباً يجب أن يُواسَى ، وميتين يجب أن يُواريا فى التراب . وقد نهضوا بهذا كله متعاونين كأحسن ما يكون التعاون ؛ فرفقوا بعمار ، ولم يكن فى حاجة إلى الرفق ، وأعانوه على دفن أبويه وكان إلى معونتهم على ذلك محتاجاً . وعاد عمار بعد أن وارى أبويه إلى داره وقد تفرّق عنه المشركون والتأمتْ حوله جماعة من المسلمين . وكان عمار يجد فى جسمه ألم العذاب ، ويجد فى قلبه حلاوة الإيمان ، ويجد فى نفسه لَذْعَ الحزن على أبويه . يقول له عثمان بن عفان : ما يحزنك عليهما وقد استوفيا نصيبهما من الدنيا وسبقاك إلى نعيم الله ورضوانه ؟ ألم تسمع نبى الله وهو يضرب لكم موعداً فى الجنة مَرّةً ، ويدعوكم إلى الصبر مرة أخرى ، وهو يقول : اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلتَ ؟ قال عمار صدقتَ أبا عمرو ، ما ينبغى أن أحزن عليهما ، وإنما ينبغى أن أستبشر لهما وقد سبقا إلى الجنة ،

(١) غراراً : قليلا .

وَعدَهما بذلك رسول الله ووَعْدُ الله حق . قال عثمان : فإن رسول الله قد وعدك بما وعدهما به ! قال عمار : هيهات أبا عمرو ! لو متّ معهما لكنت خليقاً أن أرضى ، ولكنهما ذهبا وبقيت ، وفى الحياة فتنة وفى النفس ضعف . وإنه ليحزننى أن فاتنى بهما الموت فأصبحت معرّضاً لما يتعرض الناس له من الإثم الذى يُحبط العمل(١) ، ومن السيئات التى تمحو الحسنات . قال عثمان : ما ينبغى أن تيأس من رَوْح الله ولا أن تَقنط من رحمته . وإنك معرض للإثم كما أنك معرّض للعمل الصالح . وإنك معرّض للسيئات كما أنك معرض للحسنات . وما ينبغى أن تكره الحياة وفيها رسولُ الله . قال عمار : أما هذا فنعمْ . ثم نهض كأنه لا يجد ألماً ولا سَقماً ولا عناء ، وكأنما رُدّتْ إليه قوته كأقوى ما تكون قوة الرجال . نهض وهو يقول لعثمان وأصحابه: وَيْحكم ! ما يحبسنا عن رسول الله ! ومضَوْا إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم فجلسوا مع غيرهم من جماعة المسلمين إلى النبى يسمعون له وهو يعظهم ويُزَكيهم ويتلو عليهم القرآن . قال أبو جهل لعتبة بن أبى ربيعة وأخيه شيبة : أما إنكما قد استنقذتما حُشاشة عمار من الموت ! ولو قد خَليتما بينى وبينه لَوُورى فى التراب ثلاثة لا إثنان . قال عُتبة : فقد خففنا عنك الوزر أبا الحكم . قال أبو جهل وقد ابتسم ثغره عن نية منكرة ورأى بشع : إنى لا أحب

(١) حبط عمله : فسد وذهب سدى .

لعدوى أن يموت ! لأن ذلك يُريحه ويكفّ عنه بأسى ويَردّ على قلبي ما فيه من الغل (1) . وإنما أحبّ له أن يحيا لأذيقه البأس مجدداً ، ولأجرّعه غُصَصَ العذاب شيئاً بعد شيء . ولا واللات والعزّى لا تعرضان بيني وبين عمار منذ اليوم إلا أن تريدا إثارة الشر بين حيكما وبين مخزوم كلها . فقد كان ياسر لنا حليفاً ، وكانت سمية لنا أمة ، وما زلنا نرى عماراً لنا عبداً . قال شيبة . فإن عمك أبا حذيفة قد أعتق عماراً وأخويه . قال أبو جهل : فإن لنا ولاءهم على كل حال . قال عتبة : هو ذاك . وأضمر أبو جهل فى نفسه ما أضمر ، وادّخر الله لعمار من الكرامة ما ادّخر ؛ فقد اتصلت فتنة عمار ما أقام بمكة ، وافتنّ أبو جهل فى هذه الفتنة حتى جعلها أحاديث . وأول ما قدّر من ذلك أن يحفظ على عمار حياته وحريته فلا يأتى على نفسه ولا يُلقيه فى غيابات السجن ، وإنما يجعله لمحمد وأصحابه نكالا : يفتنه كلما أحسّ الحاجة إلى أن يفتنه ، ويعذبه كلما أحس الشوق إلى أن يشهد مشهد العذاب . وكأنه حالف الشيطان على أن يوفى عماراً من العذاب ما لم يستطع أن يَصُبّ على أبويه ، وأن يظفر منه بما لم يظفر به من ياسر وسمية ، فيضطره إلى أن يذكر آلهته بخير وأن ينال من محمد صلى الله عليه وسلم . وأعانه الشيطان على ذلك كله ، وأعانه عليه قوم آخرون من سفهاء قريش . فترك عماراً آمناً مُعافى فى نفسه وبدنه ودينه ، لم ينله بأذى ، ولم يعرض

(1) الغل : الحقد والغش .

له بسوء . حتى استراح عمار من محنته وظنّ أنه قد أمن الفتنة . فكان يغدو على دار الأرقم بن أبى الأرقم ، فيسمع من النبى ويتحدث إليه ، ثم يروح إلى داره وقد اتخذ فيها ما لم يتخذه مسلم قبله فى داره : اتخذ فيها مسجداً يعبد الله فيه أكثر الليل . حتى أنزل الله فى ذلك قرآناً : «أمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناءَ الليلِ سَاجداً وقائماً يحذَرُ الآخرةَ ويرجو رَحْمةَ رَبِّه، قُلْ هَلْ يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكرُ أولو الألباب» فيما تحدث به ابن عباس.

ولكن أصحاب النبى يجتمعون ذات يوم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، حتى إذا ارتفع الضحى افتقدوا عماراً بينهم فلم يجدوه . فإذا ذكروا ذلك أنبأهم النبى صلى الله عليه وسلم بأن عماراً يُعذب فى الله . ثم يمر النبى بعد أن يتقدم النهار بمكان فى بطحاء مكة فيرى أبا جهل وقد عاد فى عمار سيرته الأولى : نارٌ مؤججة . وماء مجتمع فى نطع من الأدَم ، وعمار قد ألقى بينهما . وجعل السفهاء من قريش ينوشونه بالرماح ويحرقونه بالنار ، وعمار صابر صامت يذكر الله فى قلبه ويكف لسانه عن القول . فإذا رأى النبى ذلك قال : يا نار كونى بَرْداً وسلاماً على عمار كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم . وقد سلط أبو جهل من النار على عمار أثناء فتنته الطويلة له ما كان خليقاً أن يأتى على نفسه . ولكن الله يقول لعباده : «ادْعُونى أستجبْ لكمْ» . وقد دعاه فى عمار أحبّ

عباده إليه وأرضاهم عنده . ولله حكمة بالغة ، ولكل أجل كتاب .

وقد احتمل عمار فى ذلك اليوم من العذاب ما يُطيقه الرجال وما لا يطيقونه ، حتى إذا جنحت الشمس لمغربها كفّ عنه العذاب ورُدّ إلى داره . وأمهله أبو جهل بعد ذلك أياماً طوالا حتى ظن عمار أنه لن يُفتَنَ مرة أخرى . ولكن أبا جهل لم يُمهله إلا ليشتد عليه فى الفتنة ويُضاعفَ لهُ العذاب . ويراه النبى ذات يوم وقد بلغ الحزن من نفسه وقلبه ما لم يبلغه منهما قط ، وعيناه تنهلّان بدموع غزار ، فيدنو النبى منه رفيقاً به ، فيكفكف دمعه ويَمسح عينيه ويقول : ويْحكَ ابنَ سُميةَ ! أخذك الكفار فغطوك فى الماء حتى قلت كذا وكذا ، فإن عادوا فعدْ ! ولكنهم لم يعودوا من فورهم ، وإنما انتظروا بعمار حتى أطمعوه فى العافية ، ثم أخذوه فعذّبوه وفتنوه ، ثم تركوه . وأقبل عمار على النبى خزيان أسفاً تنهلّ دموعه غزاراً على وجه مُربَدّ كئيب . فلما رآه النبى قال : ما وراءك ؟ قال عمار وهو ينتحب : شرّ يا رسول الله ، والله ما تركونى حتى ذكرت آلهتهم بخير وذكرتك بما تكره ويحبون . قال رسول الله : فكيف تجد قلبك ؟ قال عمار : أجده مطمئناً بالإيمان . قال رسول الله : فإن عادوا فعد . وأنزل الله فى ذلك قرآنا : « مَنْ كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ مَنْ أُكرهَ وقلبه مُطمئنٌّ بالإيمان ولكنْ مَنْ شرَحَ بالكفر صدْراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيمٌ » .

ولم يخلص عمار من هذه الفتنة المنكرة التى كانت تتلاحق طوراً وتتقطع طوراً آخر إلا حين أذن الله للمسلمين فى الهجرة إلى أرض الحبشة . فهاجر عمار الهجرة الثانية ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة ، فعاش مع رسول الله آمنا سالماً موفوراً .

١٥

استوثق رسول الله صلى الله عليه وسلم لدعوته ولأصحابه ولنفسه من حَيّيْ يثرب : الأوس والخزرج ، وعاهدهم أن يُؤووه وينصروه ويحموا ظهره ويُقاتلوا من دونه من بَغىَ عليه أو أراده بسوء حتى يُبلغ رسالات ربه . وبايعه على هذا العهد نُقباء[1] هذين الحيين الأوس والخزرج . ثم أذن الله بعد ذلك لرسوله وللمسلمين فى الهجرة إلى مستقرهم الجديد . وكان الإسلام قد سبقهم إلى يثرب ، بشّر به مَنْ أرسله رسول الله ليبشر به . فكانت الهجرة إلى دار استقر فيها الإسلام قبل أن يستقر فيها المهاجرون . وقد أذن رسول الله لأصحابه فى الهجرة إلى المدينة ، فجعلوا يذهبون إليها أرسالا . وهو صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة ينتظر أن يأذن الله له فى الخروج . واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين إلى إخوانهم من الأنصار فى قُباء ، وجعلوا ينتظرون أن يقدَم عليهم رسول الله . وكانوا فى أثناء

(1) نقباء : جمع نقيب وهو عريف القوم وسيدهم .

ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيمونها بمكة . وينظر المسلمون فإذا أقرؤهم للقرآن وأحفظهم عن النبي سالمٌ بن أبي حذيفة . فيقدّمونه ليؤمّهم[١] في الصلاة . وفيهم أعلامٌ من المهاجرين ، منهم عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة ، كما قال فيما بعد عبد الله بن مسعود . وينظر المشركون والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار يقدّمون سالماً ليؤمّهم في الصلاة . فيكبرون من أمر سالم هذا باديَ الرأي . ثم لا يلبثون أن يذكروه ويعرفوه . يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذا الرجل الذي يصلّي بهذه الناجمة من أصحاب محمد مَنْ هاجَرَ منهم إلى المدينة ومَنْ كان من أهلها ؟ إنه سالم . ألا تذكرون سالماً ؟ فيجهد القوم أنفسهم ليذكروه ، ولكن بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودي الذي كان يعرض على العرب واليهود صبياً حدَثاً لا يُحسن العربية ولا يفهمها . وما هي إلا أن يسمعوا بدء هذه القصة حتى يستحضروا سائرها ، وحتى يروا ذلك الصبي الذي مسه الضر وظهر عليه البؤس وزهد فيه العرب واليهود جميعاً ، واشترته ثُبيتة بنت يعار ، لا رغبة فيه بل عطفاً عليه . ثم يقول بعضهم لبعض: لو عاش سلام بن جبير لرأى من صبيه ذاك عجباً . ثم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذه الناجمة من

(١) يؤمهم : يتقدمهم ويكون لهم إماماً .

أصحاب محمد يؤمّهم فارسي قد كان بالأمس عبداً ؟ ثم يردّ بعضهم على بعض رَجْعَ هذا الحديث فيقول : إن لهؤلاء الناس لشأناً . إنهم يُسوّدون العبيد ، ويُلغون ما بين الأحرار والرقيق من الفروق ، وإنا لنرحم قريشاً مما ألمّ بها ، وإنا لنعذر قريشاً مما فعلتْ بمحمد وأصحابه . ولو استطعنا لفتناهم كما فتنتهم قريش . ولنفيناهم عن أرضنا كما نفتهم قريش . ولكن هل إلى هذا من سبيل ؟ فيقول قائلهم : هيهات ! لقد آمن لهم أولو البأس والقوة من قومنا . ولكن فريقاً من هؤلاء المتحدّثين يسمعون ثم يُنكرون ثم يؤثرون الصمت ، ثم يخلو بعضهم إلى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يَعجبون فيه من أمر هذا الذي كان عبداً بالأمس . ثم هو يَؤمّ الأحرار في صلاتهم اليوم . ثم يتتبعون المهاجرين فيرون فيهم نفراً غير قليل من الرقيق الذين أعتقوا ، أعتقهم إسلامهم . ثم يتتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين رُدّتْ عليهم الحرية بعد أن نشئوا في الرق ، فيرونها تقوم على الإخاء والعدل والنَّصَفة والمساواة . ثم يتحدّثون في ذلك إلى المسلمين من قومهم . فيقول لهم هؤلاء : إن الإسلام لا يفرق بين الحر والرقيق . ولا بين الناس إلا بالتقوى ، وبما يقدّمون بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات . هنالك تطمح قلوبهم إلى هذه المساواة التي لم يسمعوا بها من قبل ، وإلى هذا العدل الذي لم يألفوه ، وإذا هم يميلون إلى الإسلام . ثم يسرعون إليه . ثم يحرصون على أن يؤمهم سالم بن

أبى حذيفة ذلك الذى كان عبداً بالأمس فأصبح يومَ الأشراف من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدى الله .

١٦

بلغ النبي وصاحبه أبوبكر قُباء ، ونزلا فيها بين جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار . وقد فرح النبي بهجرته إلى المدينة ، وفرحت المدينة بهجرته إليها ؛ فهى فى عيد متصل . والأنصار يستبقون إلى برّ النبي وأصحابه من المهاجرين : يؤوونهم ، ويقومون بحاجاتهم ، ويُطرفونهم بما يستطيعون أن يُطرفوهم به من الطيبات . وقد تقدّم النهار وصُليت الظهر ، وأقبل رجل من الأنصار فوضع بين يدى النبي رُطَباً ، وجعل النبي وصاحباه أبو بكر وعمر يصيبون من هذا الرطب . وإنهم لفى ذلك وإذا شخصٌ يُرفَعُ لهم(1) ، ثم يدنو منهم ، ثم يسلم عليهم ، ثم يجلس إليهم ، وإذا هو صهيبٌ سابقُ الروم إلى الإسلام ، كما قال فيه رسول الله .

وقد أقبل صهيب مجهوداً مكدوداً قد بلغ منه الإعياء وكاد يأتى عليه الجوع ، وقد أصابه فى طريقه رَمَدٌ ، فهو لا يكاد يرى إلا فى مشقة أىّ مشقة ، وقد ألقى تحية إلى أصحابه ، ثم ألقى نفسه على الأرض ، ثم نظر فرأى الرطب فانكب عليه وجعل يأكل منه أكلا

(١) يرفع لهم : يظهر من بعيد .

غير رفيق . يقول عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا ترى يا رسول الله إلى صهيب يأكل الرطب وهو رَمِدٌ ؟ فيقول له النبي : أتأكل الرطب وأنت رَمِدٌ ؟ فيقول صُهيب وهو يمعن فى الأكل : إنما آكله بشقّ عينى الذى لم يَرْمَدْ ؛ فيبتسم رسول الله ويضحك القوم . ويمضى صُهيب فى أكل غير رفيق . حتى إذا أرضى حاجته إلى الطعام جعل يعاتب أبا بكر فيقول : وعدتنى الصحبة ثم تركتنى . ثم يُعاتب النبي فيقول : ووعدتنى يا رسول الله الصحبة ثم تركتنى ، والله ما خلصت إليك حتى اشتريت نفسى من قريش بمالى أجمع . وما تركتُ مكة إلا بمدّ من دقيق عجنته بالأبواء وعشت عليه حتى انتهيت إليك . فيجيبه رسول الله : رَبح البيع أبا يحيى ! رَبح البيع ! وينزل الله هذه الآية الكريمة : « ومَن الناس مَن يَشرى نفسه ابْتغاء مَرْضَاة الله واللهُ رَءُوفٌ بالعباد » وقد أوجز صُهيب قصة هذا البيع الرابح .

وقد كان من أخلاق المسلمين الصادقين ألا يتكبروا ولا يَمنّوا بإسلامهم . وقد ثابت قريش بعض الشيء إلى نفسها بعد أن فاتها محمد وأبو بكر ، وجعلت تتتبعُ من بقىَ من أصحاب محمد . تحبسهم عن الهجرة ، وتُمسكهم فى العذاب ، وتفتنهم فى دينهم ، وتصدّهم عن سبيل الله . وكان صُهيب من الذين حبستهم قريش . يقول له أبو جهل وقد ورم أنفه وذهب به الغيظ كل مذهب : أتيتنا صُعلوكاً حقيراً لا تملك من الدنيا شيئاً ، فأثريت عندنا وأصبحت

ذا مال ، ثم أنت تريد أن تفوتنا بمالك ونفسك إلى محمد وأصحابه ؛ قال له صُهيب : فإن خليتُ بينكم وبين مالى أتخلون بينى وبين ما أريد من الهجرة ؟ قالوا : نعم ، وقال أبو جهل : هيهات ! إن حاجتنا إلى مالك ليست أقل من حاجتنا إلى نفسك ، فلنمسكنّك فى العذاب حتى نأخذ مالك ثم نأتى على نفسك أو تعود من ديننا إلى ما كنت عليه . قال صهيب وفى صوته حزن مُرّ : لو عاش عبد الله بن جدعان لما بلغتَ منى ما ترى . قال أبو جهل : سَنُلحقك بعبد الله بن جدعان فاشكنا إليه إن شئت . ألستم تزعمون أن الناس يحيون حياة ثانية بعد حياتهم هذه الأولى ! فالقَ عبد الله بن جدعان هناك إن شئت فاشكنا إليه . قال صُهيب : هيهات ! لن ألقاه ، قد وعدنى رسول الله الجنة ، وهو فى النار . قال أبو جهل وقد استأثر به الغيظ فسطا على صُهيب وضرب فى وجهه ضرباً عنيفاً : ألا تسمعون يا معشر تيم ! إن سيدكم عبد الله بن جدعان فى النار ، وإن عبده هذا الرومى سيصير إلى الجنة ! ما رأيت كاليوم حمقاً ولا خُرْقاً .

ولبث صهيب فى حبسه أياماً لا يُرزَقُ من الطعام إلا ما يعصمه من الموت . ولكن الإسلام كان فى ذلك الوقت قد فشا فى أحرار مكة ورقيقها ، فيحتال بعض أولئك وهؤلاء ، وإذا صهيب قد انسلّ من محبسه وركب راحلته وأخذ طريقه إلى المدينة .

وعلمت قريش بأن صهيباً قد انسلّ من محبسه ، وبأنه يوشك أن يفوتها ، فترسل فى أثره الخيل ، ويُدرك القوم صهيباً ولم يمض

فى طريقه إلا قليلا . فلما رآهم قد أقبلوا ، وعلم أنهم يوشكون أن يأخذوه وأن يردّوه إلى الفتنة والعذاب . وقف لهم ، ونثر ما فى كنانته من السهام ، وقال لهم فى صوت الحازم المصمم : علمتم يا معشر قريش أنى من أرماكم رجلا ، وإنكم والله لا تصلون إلىّ حتى أرميكم بكل ما بين يدىّ من سهم ، ثم أضربكم بسيفى ما بقى منه شىء فى يدى . فاختاروا بين الموت وبين مالى أدلكم عليه فتأخذونه وتخلون بينى وبين الطريق . ولم يَطُل تفكير قريش ولا ائتمارها ، وإنما آثروا العافية والسلامة والمال ، فقالوا : قد رضينا ، فدلنا على مالك . فأنبأهم بمكانه وانصرفوا عنه . ومضى هو فى طريقه حتى بلغ رسول الله وقد أدركه من الجهد والكد ومن الظمأ والجوع ما كاد يأتى عليه .

١٧

هاجر عبد الله بن مسعود إلى المدينة ، كما هاجر إليها غيره من المهاجرين . فنزل على مُعاذ بن جبل أو على سعد بن خيثمة ، يختلف رُواة السيرة فى ذلك . وأقام عبد الله عند مُضيفه حتى خطّ رسول الله للناس دورهم فى المدينة ، فخطّ لبنى زُهْرَة فى مؤخر المسجد . وقال حىّ منهم للنبى : نَكِّبْ عنا ابن أم عبد ، كأنهم كرهوا نزوله بينهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلِمَ يبعثنى الله إذن ؟ إن الله لا يقدس قوماً لا يُعطى الضعيف منهم

حقه . ثم أنزله منزله بينهم كريماً .

ولم يكد عبد الله يستقر فى المدينة حتى كان ألزم الناس للنبى وأشدّهم اتصالا به فى حياته العامة والخاصة، يحجبه(1) إذا دخل داره ، ويسعى بين يديه إذا خرج منها . وكان أصحاب الحديث يقولون : إن ابن مسعود كان صاحب سواد رسول الله ووساده ونعليه وطهوره . كان أثناء الإقامة يقوم على حجرته حاجباً ، لا يخفى النبى عليه من سر إلا ما يؤمر بإخفائه . فإذا همّ النبى أن يخرج ألبسه نعليه ومشى بين يديه بالعصا . حتى إذا جلس نزع نعليه فأدخلهما فى ذراعه وأعطاه العصا . فإذا أراد أن يقوم ألبسه نعليه وأخذ منه العصا فمشى بها بين يديه حتى يبلغ الحجرة فينحّى ستارها ، ويدخل قبل النبى . حتى إذا دخلها النبى نزع نعليه وخرج فقام أمام الستر حاجباً . فإذا خرج النبى فى السفر فابن مسعود صاحب وساده إذا نام ، وصاحب طهوره كلما أراد الوضوء . وكان النبى إذا أراد أن يغتسل فى بعض سفره قام ابن مسعود من دونه يستره ، حتى لم يشكّ كثير من أصحاب النبى أن ابن مسعود كان من أهل بيته . فليس غريباً إذن أن يكون أحفظ الناس للقرآن وأكثرهم سماعاً عن النبى. ثم أصبح بعد النبى أكثر الناس تعلما للقرآن وأقلهم رواية لحديث النبى ، يتألم من ذلك ويخافه أشد الخوف . وكان النبى يؤثره ويكبره ويدافع عنه ويشيد به ، حتى قال ذات يوم : لو

(1) يحجبه : يقوم حاجباً على بابه .

كنت مؤمّراً أحداً دون شورى المسلمين لأمّرت ابن أمّ عبد . وأمره ذات يوم أن يصعد فى شجرة فيجنى له من ثمرها ، فلما جعل يصعد فى الشجرة نظر أصحاب النبى إلى دقة ساقه وحموشتها(1) فضحكوا. قال رسول الله : ممّ تضحكون ؟ قالوا : من دقّة ساقه . قال رسول الله : لهى أثقل فى الميزان من أحد . وظل صاحبَ سرّ النبى ووساده وطهوره ، حتى إذا اختار الله النبى لجواره وخرجت جيوش المسلمين غازية إلى الشام خرج فيها غازياً ، كأن مقامه بالمدينة قد شق عليه بعد أن توفّى خليله ، وأقام بحمصَ ما شاء الله أن يقيم ، حتى حدّره(2) عمر إلى الكوفة .

١٨

أقبل النذير فملأ قلوب قريش ذعراً حين أنبأها بأن أبا سفيان يستغيثها ويستنفرها(3) ويعلمها أن محمداً قد خرج بأصحابه من المدينة يستعرض العير . ولم يتقدّم النهار حتى كانت قريش قد نفرت وجعلت تجهز جهازها للحرب . يتنافس أشرافها فى ذلك أىّ تنافس، ويستبقون(4) إليه أى استباق . واستيقن أبو جهل أن قد جاء الوقت الذى كان

(1) حمشت الساق : دقت .
(2) حدره : أنزله .
(3) يستنفرها : يستنجدها ويستنصرها .
(4) يستبقون : يسرعون .

ينتظره منذ أعوام طوال ، وأن قريشاً لن تخرج لتحمى العيرَ فحسب، وإنما تخرج لتسحق محمداً وأصحابه وتريح منهم مكة ويثرب جميعاً . وقد جاء النبأ بعد أن خرجت قريش بأن أبا سفيان قد ساحل بالعير[1] حتى أحرزها[2] من محمد وأصحابه ، وأن قريشاً تستطيع أن تعود إلى مكة فتنعم فيها بالسلم والعافية . ولكن قريشاً أبت أن تعود كما خرجت وَزين لها الشيطان بلسان أبى جهل أن تمضى حتى تأتى بدراً فتنزل بها منتصرة مظهرة للعرب أنها ما زالت قريشاً صاحبة العز والمجد والسؤدد. ثم تنحر فتطعم وتشرب وتطرب وتشرك العرب فى طعامها وشرابها وطربها ولهوها، ويعلم محمد وأصحابه أن كلمة هُبلَ[3] ما زالت عالية ، وأن عزّ قريش لا يُرام . وخرج سهيل بن عمرو فيمن خرج من أشراف قريش، وقد جعل إلى ابنه عبد الله ماله وحُملانه[4] يسعى بها بين يديه . وكان سهيل قد فُتن فى دينه حين عاد من هجرته إلى أرض الحبشة ، أخذه أبوه فأوثقه وحبسه وفتنه حتى استيقن أنه قد عاد إلى دين آبائه وآثر قريشاً على محمد . فلما خرج مع الملأ من قريش قدّم ابنه بين يديه فخوراً به معتمداً عليه . وتراءى الجمعان ببدر ، ونظرت قريش فإذا محمد فى قلة من أصحابه ، فامتلأت

(١) ساحل بالعير : ذهب بها إلى ساحل البحر .

(٢) أحرزها : صانها وحفظها .

(٣) هبل : صنم كان فى الكعبة .

(٤) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة .

عُجباً وتيهاً . ونظر النبى فإذا قريش قد أقبلت بقضّها وقضيضها[1] . فاستنجز الله وعده واستنزل نَصرَه وتضرع إليه فى أن يُثبّت قلوب المؤمنين . وتدانى الجمعان .

ولكن قريشاً تنظر فترى عجباً ، ولكن المسلمين ينظرون فيرون عجباً : ترى قريش فتى من أقوى شبابها قوة وأنضرهم نضرة وأشدهم بأساً ، يخرج من صفها وينحاز إلى محمد. ويرى المسلمون والمهاجرون منهم خاصة صديقاً لهم قد عرفوه وأحبوه ، ثم حزنوا عليه حين ظنوا ، كما ظنت قريش ، أنه قد عاد إلى دين آبائه . وتتساءل قريش عن هذا الفتى ، وتتساءل كثرة المسلمين عن هذا الفتى ، ثم يعرف أولئك وهؤلاء أنه عبد الله بن سهيل بن عمرو ، خدع المشركين عن أنفسهم وعن نفسه ، وانتفع بما أنزل الله فى أمر عمار بن ياسر : «مَنْ كفر بالله مِنْ بعد إيمانه إلا مَنْ أُكرِه وقلبُه مُطمئنٌ بالإيمان ، ولكنْ مَنْ شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيم» .

فهو لم يكفر بقلبه ، ولم يشرح بالكفر صدراً ، ولكنه وجد قلبه كما وجد عمار قلبه حين فتنته قريش مطمئناً بالإيمان . وقد قال النبي لعمار : إن عادوا فعد ، وفهم عبد الله بن سهيل آية القرآن وحديث النبي على وجههما . فلما أحس الفتنة من أبيه أظهر له ولقريش ما أرضاهم ، وأخفى عليه وعلى قريش ما أرضى الله . وها هو ذا

(١) أقبلوا بقضهم وقضيضهم: جميعهم .

يخرج من صفوف قومه وينحاز إلى صف المسلمين . ثم يسعى حتى يبلغ النبى فيهدى إليه سلامه ويتلقى منه بركته . ثم يخرج إلى أصحابه من المهاجرين فيزحف معهم لقتال قريش وفيهم أبوه . ويلقى أثناء الزحف أبا حذيفة بن عُتبة بن ربيعة زوج أخته مهلة . فإذا قص عليه قصته أثنى أبو حذيفة عليه وقال خيراً . ولم يزد على ذلك شيئاً . وقد تدانى الجمعان . حتى لم يبق إلى تدانيهما سبيل إلا بسيف أو رمح . ولكن قريشاً تنظر فترى عجباً . والمسلمون ينظرون فيرون عجباً : يرون فتى يصول فى الميدان بين الصفين يدعو عتبة بن ربيعة للمبارزة . ويخرج عتبة للفتى . ولكنه لا يكاد يراه حتى ينصرف عنه ، وقد ملأ الغيظ قلوب قريش وملأ الإعجاب قلوب المسلمين : رأى أولئك وهؤلاء أبا حذيفة يدعو أباه للمبارزة . ويبلغ هند بنت عتبة وزوج أبى سفيان أن أباها وأخاها الوليد وعمها شيبة قُتلوا ، وأن أخاها أبا حُذيفة قد دعا أباه للقتال . فتقول فى هذا كله فتكثر القول ، وتهجو أخاها أبا حذيفة بهذين البيتين :

الأحول الأثعلُ المشئوم طائره[1] ... أبو حذيفة شرّ الناس فى الدين
أما شكرتَ أباً ربّاك من صغرٍ ... حتى شببتَ شباباً غير محجون[2]

وشهد الوقعة فيمن شهدها من المهاجرين عبد الله بن مسعود . وكان خفيفاً نحيفاً ضئيل الشخص قليل اللحم موفور النشاط

(١) الأثعل : من تراكبت أسنانه إحداها على الأخرى . المشئوم طائره : المنحوس الطلعة .
(٢) محجون : معوج .

سريع الحركة ، لا يكاد يُرى فى مكان حتى يُرى فى مكان غيره ، شأنه فى قريش المحاربة كشأنه فى قريش بمكة حين كانت تفتن المسلمين ، وهو يعدو هنا ويعدو هناك ، ويطير فى الميدان من مكان إلى مكان . وإنه لفى بعض ذلك وإذا هو يرى ابنى عفراء قد صرَعا أبا جهل وأثبتاه[1] ، فيسرع إليه ابن مسعود ويدركه وفيه رمقٌ يُتيح له أن يرى وأن يسمع وأن يعقل ، ويُتيح له أن يتكلم فى بعض الجهد . فيجلس ابن مسعود على صدره وهو يقول : ها قد أخزاك الله يا عدو الله ! قال أبو جهل فى صوته المتهالك المتقطع : ها أنت ذا يا راعى الغنم ! لقد ارتقيت مرتقى صعباً . قال ابن مسعود : لقد أخزاك الله بما قدّمت إلى المسلمين من شر ، فذُقْ عذاب الدنيا ، ولعذابُ الآخرة أشد بأساً وأعظم تنكيلا . ثم يحتز رأسه ، ثم يمضى خفيفاً مسرعاً ، فينبئ النبى بمقتل أبى جهل . قال النبى : الله الذى لا إله غيره ! قال ابن مسعود : الله الذى لا إله غيره ! فكبر النبى وكبّر مَنْ حوله من المسلمين . ووقف النبى بعد ساعة على صَرْعى قُرَيش وقد ألقوا فى القليب فقال : « يأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » . قال بعض أصحاب النبى : إنهم موتى يا رسول الله ! قال : « إنهم ليسمعون كما تسمعون إلا أنهم لا ينطقون » .

(١) أثبتاه : جرحاه جراحة لا يتحرك منها ولا يقوم بعدها .

١٩

كان بلال من السابقين الأولين إلى الإسلام . وكان أول من أذّن فى الإسلام . وقد جعل النبى الأذان إليه حين نَظّمتْ جماعة المسلمين . وليس من شك فى أن قد كان بين العرب من المهاجرين والأنصار من كان أندَى صوتاً من بلال . وربما كان بينهم كذلك من كان أفصح منه لغة وأنصع منه منطقاً ! ولكن الله يؤتى فضله من يشاء. وقد عرف رسول الله لبلال سَبْقه إلى الإسلام وسبقه إلى الأذان ، فجعله صاحبَ أذانه ما أقام فى المدينة . وإذا غاب عنها أذّن مكانه أبو محذورة . فإذا غاب أبو محذورة وبلال أذّن مكانهما عمرو بن أم مكتوم . وكان بلال يتحرى الوقت بالأذان فلا يؤخره . فإذا فرغ من أذانه أقبل حتى وقف على باب رسول الله ليؤذنه . وقال : حىّ على الصلاة . حىّ على الفلاح . الصلاة يا رسول الله . ثم تنحى وقام ينظر . حتى إذا خرج رسول الله ورآه بلال" أخذ فى الإقامة . وكان بلال يسعى بالعنزة(1) بين يدى رسول الله فى العيدين وفى الاستسقاء . حتى إذا بلغ المصلّى رَكز العنزة بين يدى رسول الله فصلّى إليها .

وكان النبى يحب بلالاً أشد الحب ويُكبر من شأنه . ويريد

(1) العنزة هنا : رمح صغير فيه زج (حديدة فى أسفله يركز بها) .

أن يُكبر الناس من شأنه . جاءته أسرة عربية تطلب إليه أن يزوّج ابنتها من رجل عربى سمته ، فقال لهم النبى : فأين أنتم عن بلال ؟ فانصرف القوم من يومهم ذاك ولم يقولوا شيئاً . ثم أقبلوا من غد على النبى فطلبوا إليه ما طلبوا أمس . فقال لهم مثل ما قال أمس : أين أنتم عن بلال ؟ فانصرف القوم ولم يقولوا شيئاً . ثم أقبلوا من الغد فطلبوا إليه ما طلبوا إليه أمس وأول من أمس ، فقال لهم مثل ما قال فى المرة الأولى وفى الثانية : أين أنتم عن بلال ؟ ثم زاد : أين أنتم عن رجل من أهل الجنة ؟ فزوجوه . وعرف الناس أن رسول لا يمايز بين المسلمين إلا بالتقوى والعمل الصالح وما يقدّمون بين أيديهم من الحسنات . وأكبرَ الناس بلالاً كما أكبره رسول الله ، حتى كان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وأعتقَ سيدنا . يريد بلالاً . وكان هذا كله خليقاً أن يُرضى بلالا عن نفسه شيئاً ، ولكن بلالا لم يرض عن نفسه قط ، وإنما كان صادق التواضع مستصغراً لنفسه مهما يفعل . أقبل مرة يريد الأذان ، فأحس شيئاً من رضا عن نفسه، فغاظه ذلك وأنطقه بكلام كان يريد أن يكون شعراً فلم يستطع ، أصاب الوزن وأخطأ القافية :

ما لبـلال ثكلته أمُّـه   وابتلّ من نَضْح دم جبينه

وكان الناس من المسلمين يأتون بلالا فيتحدثون إليه ويذكرون ما آتاه الله من الفضل وما اختصه به من الكرامة ، فلا يزيد على أن يقول : إنما أنا حبشى وقد كنت بالأمس عبداً .

وأقبل المسلمون يوم الفتح فدخلوا مكة ظافرين ، وثابت قريش إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً ، وعفا رسول الله عن مسيئيها ، وقال لهم مقالة يوسف لإخوته : « لا تثريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » . وحطم الأصنام وطهّرَ الكعبة وأخلصها لله عز وجل ، ثم قال لبلال : اصعدْ فأذّنْ علىَ ظهر الكعبة . وصعد بلال فأذن على ظهر الكعبة والحارث بن هشام وَصَفْوان بن أمية قاعدان ؛ يقول الحارث بن هشام لنفسه فى أعماق نفسه : كيف لو رأى أخى عمرو بن هشام بلالا هذا قائماً على ظهر الكعبة ؟ ويقول صَفْوان بن أمية لضميره فى أعماق ضميره : كيف لو رأى أبى أمية بن خلف هذا العبد الذى طالما عذّبه وأدّبه قائماً على ظهر الكعبة ؟ ولو استطاع الرجلان لاكتفى كلٌّ منهما بالحديث إلى نفسه ، ولكنهما يريان الكعبة وقد زال عنها هُبل وزالت اللاتُ والعزّى ومَناة الثالثة الأخرى وقام على ظهرها حبشىّ يُعلن دين محمد إلى قوم طالما حاربوا محمداً وأصحابه ، وليس منهم الآن إلا من يستجيب لدعوة محمد راضياً أو كارهاً .

ينظر الرجلان إلى الكعبة وقد طُهِّرت من الأوثان ، وإلى هذا الحبشىّ القائم على ظهرها ، فلا يملك أحدهما إلا أن يهمس فى أذن صاحبه : ألا ترى إلى هذا الحبشى ؟ قال ذلك فى صوت تملؤه الحسرة . ويجيبه صاحبه فى صوت خافت تشيع فيه السخرية المرة : إنْ يكرهه الله يُغيره . وبلالٌ قائم على ظهر الكعبة يرفع صوته الندى قائلا : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وأذن بلال فى المدينة للمسلمين ، فاستجابت له قلوبهم محزونة ، وأغرقت جماعتهم فى نحيب مرّ ارتجّ له المسجد حين قال بلال وصوته يكاد يحتبس فى حلقه « وأشهد أن محمداً رسول الله » . وذلك أن النبى كان روحه قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وكان جسمه لم يُقبرْ بعدُ . فلما دفن صلى الله عليه وسلم وتمتْ البيعة لأبى بكر ، قام إليه بلال فقال : أىْ خليفة رسول الله ! إن كنت قد اشتريتنى لنفسك فأمسكنى ، وإن كنت قد اشتريتنى لله فذرنى وَعملى لله . قال أبو بكر : ما تشاء يا بلال ؟ قال بلال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن أفضل عمل العبد جهاده فى سبيل الله ، فخلّ بينى وبين الجهاد . وأراد أبو بكر أن يردّه عن نيته تلك فلم يستطع . وانصرف بلالٌ إلى الشام فرابط[1] فيها غازياً حتى توفّىَ فى دمشقَ عام عشرين .

٢١

وأقبل عمار بن ياسر إلى المدينة مهاجراً فنزل على مُبشّر بن عبد المنذر ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين حُذيفة بن اليمان . وأقام عمار عند مُضيفه مُبشر حتى أقطعه رسول الله موضع داره ، وحتى بناها ثم انتقل إليها . وكان عطف النبى على عمار شديداً وحبه له قوياً عميقاً . وكان عمار يحس

(١) رابط الجيش : لازم تخوم العدو .

هذا الحب وذلك العطف ، فيدفعه هذا الإحساس إلى تحمس فى الإسلام كان يمتاز به من أكثر المسلمين ، حتى كانت الأنظار تتجه إليه ، وكانت النفوس كثيراً ما تفكر فيه ، وربما لهجت به بعض الألسنة أحياناً . وكان عمار يتحامل على نفسه ويأخذها من الجهد فى سبيل الله بأكثر مما كانت عامة المسلمين تأخذ به أنفسها . أخذ رسول الله فى بناء مسجده واشترك المسلمون فى هذا البناء ، يرون اشتراكهم فيه خيراً لأنفسهم وبرًّا بها ، ولم يكن رسول الله أقلهم جهداً ولا أيسرهم عناء فى هذا البناء ، فكان يحمل معهم اللبن[1] حتى يغبرّ وجهه الكريم وحتى يكثر عليه التراب . وكان المسلمون يحملون اللبن لَبنة لَبنة إلا عماراً فكان يحمل لبنتين لبنتين ، وكان ينفق فى ذلك من النشاط والمرح والرضا ما كان يملأ قلوب المسلمين إعجاباً به ، وقلوب المنافقين حقداً عليه . وكان يحمل لَبناته وهو يتغنى : « نحن المسلمين نبتنى المساجدا » . وربما رق قلب رسول الله لعمار فيقبل عليه ويرفق به ويتلطف له ويمسح عن وجهه وصدره التراب ، حتى قال له ذات يوم وهو يمسح التراب عن وجهه : « وَيْحك ابن سُمية ؟ تقتلك الفئة الباغية ! » . ووقعت هذه الكلمة من قلوب المسلمين موقعاً غريباً ، فنقشت فى ضمائرهم وملأت نفوسهم هيبة لعمار وإكباراً له . ولم يقل النبى هذه الكلمة لعمار مرة واحدة ، وإنما قالها له

(1) اللبن : الطوب النىء .

فيما يظهر غيرَ مرة : قالها له أثناء بناء المسجد ، وقالها له بعد سنين حين احتفر الخندق . وكان بلاء عمار فى حفر الخندق مُضاعفاً كبلائه فى بناء المسجد . وكان النبى يعمل مع أصحابه فى حفر الخندق كأحد منهم يحمل التراب والحجارة ويتغنى وهم يردّون عليه :

« لا همّ إنّ العيش عيش الآخرة . فاغفرْ للأنصار والمهاجرة » .

وأقبل مقبل فزعم أن حائطاً سقط على عمار فمات . فقال النبى : لم يمت عمار . ثم لقى عماراً فقال له : « وَيْحك ابن سُمية ؛ تقتلك الفئة الباغية ! » وملأت هذه الكلمة قلب عمار يقيناً وثقة وحرصاً على أن يعمل صالحاً ما وسعه العمل ، وعلى أن يجتنب الفتنة ما وسعه اجتنابها . وكان يطيل الصمت ولا يتكلم إلا حين لا يكون من الكلام بُدٌّ . وكان كثيراً ما يقطع صمته بهذه الكلمات : عائذٌ بالله من فتنة ! عائذ بالله من فتنة ! ثم يعود إلى صمته العميق .

وأقبل خالد بن الوليد ذات يوم بعد أن أسلم . فكان بينه وبين عمار شىء من خصومة . فأغلظ خالد لعمار فى القول — وكأنه ذكر سُمَية التى كانت أمة لعمه أبى حُذَيفة ، وياسر الذى كان حليفاً لعمه أبى حذيفة . وكأنه ذكر عماراً بأنه عتيق عمه أبى حذيفة ، وكانت فى خالد بقية من كبرياء مخزوم ، وكان فيه فضلٌ من صَلَف[2] قريش — فجاء عمار إلى النبى صلى الله

(1) لا هم : اللهم ، يا الله .
(2) صلف : تكبر وتمدح وادعاء .

عليه وسلم يشكو خالداً . وأقبل خالد أثناء ذلك فجعل يقول لعمار وعمار ساكت والنبي مطرق . ثم رفع النبي رأسه وقال فى صوته الوادع العذب الذى ينفذ إلى القلوب : « مَنْ عادى عماراً فقد عادانى » . فخرج عمار كأرضى ما يخرج الناس ، وخرج خالداً مهموماً مغتماً كئيب النفس . فلم يسترح حتى أرضى عماراً ووثق بأنه عفا له عما أسلف إليه من سوء .

٢١

عادت العرب إلى كفرها بعد وفاة النبى ، وجدّ أبوبكر وجدّ معه الأنصار والمهاجرون فى ردهم إلى الإسلام طائعين أو كارهين . وخرج خالد بن الوليد بجيش أبى بكر إلى اليمامة يقاتل مُسيلمةَ ويَردّ بنى حَنيفةَ إلى الإسلام . والتقى المسلمون وأهل الردّة ، فكانت بينهم موقعة من أشد ما عرف المسلمون من المواقع وكان فى الجيش أربعة نفر كلهم شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله : عمار بن ياسر ، وأبو حُذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وابنه قديماً ومولاه حديثاً سالم بن سالم ، وأخو امرأته عبد الله بن سهيل بن عمرو . وقد انكشف المسلمون وكادت الدائرة تدور عليهم ، ولكن الناس يرون هؤلاء النفر قد ثبتوا فى أماكنهم لا يَريمون . فأما سالم فجعل يصيح بالناس : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ! ثم احتفر حفرة فأثبت فيها قدميه ، وصنع أبو حذيفة وعبد الله بن سهيل صنيعه فاستشهدوا جميعاً فى أماكنهم .

وأما عمار فقد رآه الناس قائماً على صخرة وقد قطعت أذنه فهى تتذبذب . وهو يصيح بالمسلمين : إلىّ أيها المسلمون أنا عمار بن ياسر . أمن الجنة تفرّون ! وما زال بهم يدعوهم وقد ثبت على صخرته لا يزول حتى ثاب إليه المسلمون وأنزل الله عليهم نصره . ويبلغ أبا بكر موت سالم ، فيدفع تُراثه إلى صاحبة ولائه ثُبيتة ، فتردّه وتقول : سيبته لله عز وجل . فإذا وَلِىَ عمر الخلافة دفع تُراث سالم مرة أخرى إلى ثبيتة صاحبة ولائه ، فتردّه وتقول : سيبته لله عز وجل . ويضعه عمر فى بيت المال .

وأقبل أبو بكر فى أثناء خلافته حاجًّا . فلما دخل مكة جاءه سهيل بن عمرو مسلّماً ، فعزّاه أبو بكر بابنه عبد الله الذى قتل فى اليمامة شهيداً . قال سهيل : لقد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يشفع الشهيد لسبعين من أهله ! فأنا أرجو ألا يبدأ ابنى بأحد قبلى .

٢٢

لم يكد عمر ينهض بأمور المسلمين بعد صاحبه حتى مضى فى سياسة الفتح التى ابتدأها من قبله . لم يهن ولم يضعف ، ولم يتح لأحد من الناس أن يَهِن أو يضعُف ، وإنما رمى العالم القديم المتحضر بثقل العرب ، فلم يثبت له العالم المتحضر إلا ريثما تداعى ثم انهار . وكان عمر لا ينام ولا يُنيم ، وإنما كان يقظاً دائماً ، موقظاً دائماً ، عاملا دائماً ، دافعاً غيره إلى العمل . وقد فتح عمر للذين أسلموا بأخَرَة من عامة العرب ومن خاصة قريش أبواب

الجهاد على مصاريعها ، وألقى فى رُوعهم جميعاً أن من فاته ثواب الغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم فلم يشهد معه بدراً ولا أحُداً ولا الخندق ولا غيرها من المشاهد ، فإن أمامه ملك الروم وفارس يستطيع أن يستدرك فيهما ما فاته من حسن البلاء . وأى بلاء أحسن من أن يكون الرجل قد تقدمت به السن ، والرجل لم يكد يخرج من شبابه ، والفتى لم يكد ينضو عنه ثوب الصبا ، وسيلة إلى تحقيق وعد الله عز وجل وتصديق قوله : « وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا منكُمْ وَعملوا الصّالحات لَيَسْتَخْلفنَّهمْ فى الأرْض كما استخلفَ الذينَ منْ قبلهمْ وَليُمكّنَنَّ لهمْ دينهمُ الذى ارْتَضَى لهمْ وَلَيبدّلَنَّهم منْ بَعد خَوفهمْ أمْناً يَعبدُونَنى لا يُشركونَ بى شيئاً » .

لقد اندفعت العرب حين دفعها عمر ، فلم تجد أمامها صعوبة إلا قهرتها ، ولا عقبة إلا ذلّلتها ، ولا مقاومة إلا جعلتها هباء .

ولم تكن أصحاب رسول الله والذين شهدوا معه المشاهد منهم خاصة أقلّ اندفاعاً إلى الجهاد واستباقاً إلى الغزو من الذين أسلموا بأخَرة . ولم يكن عمر يصدّهم عن ذلك أو يردُّهم عنه ، وإنما كان يُخلى بينهم وبين ثواب الله يطلبونه ما وجدوا إليه سبيلا ، إلا أولئك الأشراف من قريش ، فإنه أمسكهم فى المدينة لم يأذن لهم بالخروج ، خاف من عامّتهم على الناس ، وخاف على خاصّتهم من الفتنة ، وكان أشراف الصحابة من قريش إذا أراد أحدهم أن يخرج للجهاد أبى عليه عمر ، وقال : قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجزئك

أما المستضعفون من أصحاب النبى من قريش ومن غير قريش

فلم يَخف عمر منهم ، ولم يخف عليهم فتنة ، فخلّى بينهم وبين ما أرادوا من الجهاد وما ابتغوا من فضل الله . وكذلك انطلق بلالٌ وأبو ذرّ وابن مسعود إلى الشام ، وانطلق غيرهم إلى العراق . وأقام فى المدينة من أمسكه ضعف الجسم أو أمسكته سياسة عمر . وأقبل خَباب بن الأرَتّ ذات يوم مُسلّماً على عمر ومستأذناً فى أكبر الظن فى اللحاق بجيش من جيوش العراق ، فيهشّ له عمر ويستدنيه ويُجلسه على مُتكئه ويقول : ما على الأرض أحدٌ أحقّ منك بهذا المجلس إلا رجلا واحداً . فيقول خَباب : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : بلال . وروى بعضهم أنه قال : عمار بن ياسر قال خَباب : ما هو بأحقّ منى ، لقد كان له من قريش من يَمنعه ويقوم دونه . فأمّا أنا فلم يكن لى أحد ، ولقد رأيتهم ذات يوم أخذونى ثم أوقدوا لى ناراً فسلقونى فيها ، ثم يُقبل رجل فيضع رجله على صدرى ، فوالله ما اتقيت بردَ الأرض إلا بظهرى . ثم يرفع رداءه ليرى عمر ما بقى فى ظهره من آثار العذاب . وينظر عمر ، وينظر من حضر من المسلمين ، فيرون شراً مروّعاً : يرون أن ظهره قد بَرص .

لم تمنعه الفتنة من أن يشهد مع رسول الله بدراً وأحُداً والخندق والمشاهد كلها . ثم لم يَكفه ذلك حتى أبى إلا أن يجاهد . كأنه رأى أنه لم يلقَ فى سبيل الله مع هذا كله ما ينبغى أن يلقى من الجهد والمشقة والعناء . وقد انحدر إلى العراق فغزا مع الغازين ، وجاهد مع المجاهدين ، ورابط فى الكوفة حتى أدركته الشيخوخة

واشتد عليه الداء ، وأقبل نفر من أصحاب رسول الله يعودونه ، وقد اكتوى فى بطنه سبع كيات ، وبرح به الألم كل تبريح . فلما دخلوا عليه رأوا رجلا مُروّعاً قد ملك الخوف والحزن عليه أمره . يقول لعواده من أصحاب النبى : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نتمنّى الموت لتمنيته . ثم يسكت صوته ويسكن جسمه وتنهلّ دموعه على وجهه غزاراً .

فيعزّيه عواده من أصحاب النبى يقولون له : أبْشِرْ أبا عبد الله ؛ إخوانك فلان وفلان وفلان ، تقدم عليهم غداً . فيغرق فى البكاء حتى ما يستطيع كلاماً ، ثم يثوب إليه شىء من هدوء فيقول فى صوته الضعيف النحيف المتقطع : أمَا إنه ليس بى جزع ، ولكن ذكرتمونى أقواماً وسميتموهم لى إخواناً ، وإن أولئك مضَوْا بأجورهم كما هى ، وإنى أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم . ثم تأخذه غشية تكفّ لسانه عن النطق حتى يُظنّ أنه قد قضى أو كاد . ثم يُرَدّ إليه شىء من حياة ، فينظر فإذا كفنه قد أحضر ، وإذا هو من قباطىّ ، فيبكى ويقول : لكن حمزة عم النبىّ صلى الله عليه وسلم كُفن فى بُردة ، فإذا مُدّت على قدميه قلصتْ(1) عن رأسه ، وإذا مُدّت على رأسه قلصت عن قدميه ، حتى جُعل عليه إذْخر (2) . ولقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أملك ديناراً ولا درهماً ، وإن فى ناحية

(1) قلصت : ارتفعت .
(2) الإذخر : الحشيش الأخضر ، وحشيش طيب الريح .

بيتى فى تابوتى(1) لأربعين ألف واف ، ولقد خشيتُ أن تكون قد عُجّلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا . يقول بعض أولئك الرهط لبعض حين انصرفوا عنه : ألا ترون إلى خباب على كثرة ما احتمل وعلى كثرة ما عمل يخشى أن يلقى الله فقيراً ليس له كبير حظ من الصالحات ! فيقول قائلهم : وما يريبكم من ذلك ؟ ألم تعلموا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للمرأة التى زعمتْ أن الله قد أكرم عثمان بن مظعون بعد موته : «وما يُدريك أن الله قد أكرمه ! إنى لرسول الله وما أدرى ما يُفعلُ بى ! » .

ولم يمنع المرض الموجع والا الحزن اللاذع ولا الخوف من لقاء الله خباباً من أن يكون مُعلماً ناصحاً للمسلمين حتى فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة . كان الناس يدفنون موتاهم فى جبابينهم قريباً من دورهم فيقول خباب لابنه حين أحسن الموت : يابُنى إذا أنا مت فادفنى بهذا الظهر؛ فإن الناس إن رأوا ذلك قالوا صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن بظهر الكوفة ، ثم دفنوا موتاهم خارج المدينة .

ومات خباب وصلى عليه علىّ رحمه الله ، ودُفن بظاهر الكوفة ؛ فدفن الناس موتاهم حول قبره .

٢٣

مضى صهيب بعد الإسلام على ما كان يمضى عليه من سيرته فى الجود والكرم قبل أن يُسلم . وكثر المال عنده بعد الفتوح ،

(1) التابوت : الصندوق .

فكثر عطاؤه وسخاؤه ، حتى تحدث بأمره الناس . وكان لا يستقبل ليله إلا جمع خلقاً من الناس كثيراً حول طعام كثير . فجعل الناس يذكرون كرم أبي يحيي وسخاء أبي يحيي وبرّ أبي يحيي . وسمع ذلك عمر فقال : من أبو يحيي هذا الذى يذكرون ؟ قالوا : صُهيب . قال : لصهيب ابنٌ يُكنّى به ؟ قال الناس : إنه يكنى أبا يحيي ، وإنه يُطعم الطعام الكثير ، كما كان أجواد العرب من قومه يفعلون . قال عمر : وإن صُهيباً لمن العرب ؟ قالوا : بذلك يحدّثنا . فسكت عمر ولم يقل شيئاً . حتى إذا كان ذات يوم فى المسجد والناس من حوله كثير وفيهم صهيب ، دعاه إليه وقال له : مالك تُكنى أبا يحيي وليس لك ولد ، وتقول إنك من العرب وأنت رجل من الروم ، وتُطعم الطعام الكثير وذلك سَرَفٌ فى المال ؟ فقال صهيب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانى أبا يحيي . وأما قولك فى النسب وادّعائى إلى العرب فإنى رجل من النمر بن قاسط من أهل الموصل ، ولكن سُبيت ، سَبتني الروم غلاماً صغيراً بعد أن عقلت أهلى وقومى وعرفت نسبى . وأما قولك فى الطعام وإسرافى فيه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إن خياركم من أطعم الطعام ورد السلام » ! فذلك الذى حملنى على أن أطعم الطعام . فسكت عنه عمر .

وعاش صهيب ما عاش خير مثل للمسلم كما صوره رسول الله حين قال : « المسلمُ مَنْ سَلِمَ الناس من لسانه ويده » . ولم يكن يعطى الناس من نفسه إلا خيراً ، كان يجود عليهم بماله وعلمه

جميعاً ، لا يتحفظ فى الجود بالمال ، ولا يتحفظ فى الجود بالعلم ، إلا بواحدة ، كان شأنه فيها شأن الخيار (1) من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : لم يكن يحب أن يتحدث عن النبى مخافة أن يخطئ الحديث . وكان يقول للناس : هلموا أحدّثكم عن مغازينا ، فأما أن أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا .

ولم يكن لصهيب أيام أبي بكر وعمر إلا شأن الرجل الخير الكريم من المهاجرين . ولكن عمر رحمه الله يُطعن ذات صباح ، وينظم أمر الشورى حين أحس الموت ، ويأمر فيما يأمر به أن تكون صلاة المسلمين إلى صهيب ثلاثاً حتى يختار أهل الشورى للمسلمين إماماً .

وينظر المهاجرون والأنصار ، فإذا صهيب يصلى بهم المكتوبات بأمر عمر . فإذا حضرتْ جنازةُ عمر قدّموا صهيباً فصلى بهم عليه .

فقد كان صهيب إذن إماماً للمسلمين حتى فرغ أهل الشورى من تشاورهم ، لم ينكر المهاجرون والأنصار من ذلك شيئاً . ولكن نفراً من شباب قريش جعلوا يتحدثون بذلك فيما بينهم ، ولم يكن شباب قريش يألفون عمر ولا يطمئنون إلى سيرته ، لشدته على قريش ولشدته فى الحق عامة . ويقول بعض أولئك الشباب لبعض : ألم تروا إلى عمر يقدّم هذا الرومى ليصلى بالمهاجرين والأنصار ، وقد كان صهيب عبداً لرجل من قريش ؟ فيقول آخر : الحمد لله على أنه لم يزدْ على أن يجعل إليه الصلاة حتى يختار هؤلاء الرهط منهم

(1) الخيار : الصالحين الكثيرى الخير .

إماماً ! فقد كان خليقاً أن يستخلفه وأن يجعل إليه إمْرةَ المؤمنين .
قال آخر : وَيْحك ! إنك لتسرف فى الظن ، وإن بعض الظن إثم . ما كان عمر ليستخلف على المسلمين مولى لعبد الله بن جدعان من سبي العرب أو من سبى الروم ، قال صاحبه وهو يضحك ضحكة ساخرة : ألم يبلغك أن عمر قال : لو كان أبو عُبيدة بن الجراح حيّاً لاستخلفته ، ولو كان سالمٌ مولى أبى حذيفة حيّاً لاستخلفته . وهل كان سالم مولى أبى حذيفة إلا رقيقاً فارسيّاً من أهل إصْطَخرَ ؛ فإذا تمنى عمر أن يستخلف على المسلمين عبداً فارسياً فما يمنعه أن يستخلف عليهم عبداً روميّاً ؟ قال أحدهم وقد ثار مغضباً : ما رأيت كاليوم رجوعاً إلى الجاهلية الأولى . ويلكم ! أمسلمون أنتم صادقون فى إسلامكم أم منافقون ؛ رحم الله عمر ! والله ما عرفناه إلا برّاً صادق النصح لله ورسوله وللمؤمنين . ألم تقرءوا قول الله عز وجل : « يَاأيُّها الناسُ إنّا خلقناكُمْ منْ ذَكر وأنثى وجَعلناكم شُعوباً وقبائلَ لتعارَفُوا إنّ أكرمكمْ عندَ الله أتقاكمْ إنّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ » ؟

وتفرق أولئك الفتية وقد ثاب بعضهم إلى الحق والهدى ؛ وأسرّ بعضهم الآخر فى نفسه أن السلطان عربى لا ينْبغى لأحد — ولو كان عمر — أن يَصرفه عن العرب وعن قريش خاصة إلى الفرس أو الروم . وكان تفكير هؤلاء الفتية وقومٌ كثير أمثالهم مصدر شرّ عظيم للمسلمين .

٢٤

أقام عبد الله بن مسعود بحمصَ بعد أن فتحت على المسلمين ما شاء الله أن يقيم ، مرابطاً فى سبيل الله . ولكن المهاجرين والأنصار ممن أقام فى المدينة ينظرون ذات يوم فإذا هو بين أظهرهم فى المسجد ، فيستبقون إليه مسلّمين عليه ، ويسألونه عن مَقدَمه فيقول : ما أدرى ، وإنما دعانى أمير المؤمنين فقدمتُ . ثم يلقى عمر عبد الله بن مسعود فيخلو إليه ، ويخلو من بعده إلى عمار بن ياسر ، ويخلو من بعدهما إلى عثمان بن حُنيف ثم يُعلن إلى المسلمين فى أعقاب صلاة من الصلوات أنه قد جعل صلاة الكوفة وحربها إلى عمار بن ياسر ، وأنه قد جعل بيت مال الكوفة وتعليم أهلها إلى عبد الله بن مسعود ، وأنه قد جعل سواد الكوفة إلى عثمان بن حنيف . فأمّا أصحاب السابقة من المهاجرين والأنصار فيسمعون ويعرفون فى سرائر نفوسهم وفى ظاهر سيرتهم . وأما الذين أسلموا بأخرة من أشراف قريش فيسمعون ويُطيعون وينصرفون وفى نفوسهم شىء . يقول أحدهم لصاحبه : غفر الله لعمر ! ماذا صنع بقريش ! ألا ترى إليه يجعل إمرةَ الكوفة لابن سُميّةَ ، ويجعل بيت مالها وتعليم أهلها لابن أمّ عبد ! وأين هو عن أشراف قريش وعن السابقين الأولين من المهاجرين ! فيقول له صاحبه : أمْسكْ عليك نفسك ، لا يبلغُ عمر من حديثك هذا شىء فيظن بك النفاق ويؤدّبك أدباً لا تحبه . إنك لحديث

عهد بالإسلام ، وما أراك قرأت من القرآن إلا قليلا . ألم تسمع قول الله عز وجل: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ وَنَجعلهم أَئمة وَنَجعلهم الوارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لهم في الأرض وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامانَ وجنودهما منهم ما كانوا يَحذَرُونَ » ؟ ! فإن عمر لم يزد على أن أنجز بعضَ وعد الله عز وجل لبعض هؤلاء المستضعفين فى الأرض . قال صاحبه وقد أظهر الرضا : هو ذاك .

وانتهى عمار بن ياسر وابن مسعود وعثمان بن حنيف إلى الكوفة . واجتمع أهلها فى المسجد . فقرئ عليهم كتاب عمر ، فإذا فيه : « أما بعد . فإنى بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً . وابن مسعود معلماً ووزيراً . وقد جعلتُ ابن مسعود على بيت مالكم . وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر ، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما . وقد آثرتكم بابن أمّ عبد على نفسى . وبعثت عثمان بن حَنيف على السواد ، ورزقتهم كل يوم شاة ، فاجعلوا شطرَها وبطنها لعمار ، والشطر الباقى بين هذين الرجلين » . وقد سمع أهل الكوفة ورضُوا وأطاعوا فأحسنوا الطاعة ، وأحسن أمراؤهم السياسة .

ونظر عمار بن ياسر فإذا هو أمير لمصر عظيم من أمصار المسلمين وجيش عظيم من جيوشهم . وأكبر الظن أنه استحضر فى نفسه ما لقى من الجهد والمحنة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وما لقى من الشدة والبأساء مع النبى بعد أن هاجر إلى المدينة ، فلم يقع هذا كله من نفسه موقعاً غريباً ، وإنما آمن بأن وعد الله حق . ولم يدفعه هذا كله

إلى تكبُّر أو تجبر أو استعلاء ، لأنه استيقن كما استيقن نظراؤه من أصحاب النبى أن هذه الحياة الدنيا غرور ، وأنها فتنة يُمتحنُ بها أولو الحزم والعزم فى أنفسهم ، فمن خلص منها كريماً نقياً سليم القلب فهو من الناجين ، ومن رتع فيها حتى أرضى غرائزه وشهواته فهو من الذين حبطَت أعمالهم وضلّ سعيهم[1] وعُجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا .

واستحضر ابن مسعود فى أكبر الظن حياته تلك حين كان راعياً لغنيمات عُقبة بن أبى مُعيط ، قد أدبرت عنه الدنيا بسعيها ودعتها وثرائها ونعيمها ، وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قد رضى عن أمانته حين أبى أن يسقيه ويسقى صاحبه من لبن غنم بن أبى معيط ، وذكر أن النبى ائتمنه على سرّه وضمه إليه وجعله من خاصته ، وذكر أن النبى قال فيه ذات يوم : « إن ساقه لأثقل فى الميزان يوم القيامة من أحُد» ؛ فلم يزده هذا إلا إيماناً وتثبيتاً وحباً للأمانة واستمساكاً بها ، ووفاء لخليله ونصحاً لأمته .

وقد أقام عمار ما شاء الله أن يقيم أميراً على الكوفة ، فكان يسيراً سَمحاً لم يتغير من أمره شىء : صَمتٌ كثير ، وكلامٌ قليل ، واختلاطٌ بالناس كأنه رجل من عامتهم ، وإقامةٌ للعدل ، وحكمٌ بالقسط ، ونُصْحٌ فى الدين لا تكلف فيه ولا تَزَيُّدَ . سئل ذات يوم فى بعض ما يُشكل من أمور الناس فقال : أكان هذا بعدُ ؟

(١) ضل سعيهم : أى فسدت أعمالهم وذهبت سدى ، وخابت .

قالوا لا . قال : دَعُوه حتى يكون ؛ فإذا كان تجشمناها[١] لكم .

وكان يخرج فى حاجات بيته وأهله كما يخرج غيره من عامة الناس . تحدّث من رآه وهو أمير الكوفة يشترى قتّاً بدرهم . ثم يستزيد البائع حبلا فيأبى عليه البائع . فيجاذبه عمار حبله وينازعه حتى يأخذ نصفه . ثم يحمل قته على ظهره ويمضى به إلى داره وهو الأمير ، لا يُنكر من ذلك شيئاً . ولا يرى أن شيئاً من ذلك يغضّ من قدره أو يحط من مكانته . ولا ينكر الناس من ذلك شيئاً ولا يرون أنه يخسه[٢] عن المنزلة التى تنبغى للأمير . وكان عمار لا يغضب لنفسه مهما يُؤذَ . فإذا تعرض أحد لحق الله أو لحق الناس غضب عمار حتى يأخذ بالحق ويَرُدّ الأمر إلى نصابه . عرف أن رجلا وشى به إلى عمر ، فلم يَزِدْ على أن قال : اللهم إن كان قد كذب علىّ فابسط له فى الدنيا واجعله مُوطأ العقب[٣] .

وأقبل بجيش من أهل الكوفة مَدَداً لأهل البصرة فى بعض المواقع . فلما أظفر الله المسلمين قال له بعض أهل البصرة : يا أجدع ، أتريد أن تشاركنا فى غنائمنا ؟ فلم يزد عمار على أن قال وهو يضحك : خيرَ أُذنىَ سببتَ . وكانت أذنه تلك قد أصيبت فى سبيل الله يوم اليمامة . وقد أبى أهل البصرة أن يُشركوا عماراً وأصحابه فى الغنيمة . وأبى عمار إلا أن يأخذ لأصحابه حقهم منها . فكتبوا فى ذلك إلى عمر ، فكتب إليهم عمر : إنما الغنيمة لمن شهد الوقعة . وأخذ عمار وأصحابه

(١) تجشم الأمر : تكلفه على مشقة .

(٢) يخسه : يحطه وينزل قدره .

(٣) هو موطأ العقب : أى يتبع ، وكأنه تداس عقبه من ازدحام القوم وراءه .

حقهم . وكان عمر يُخالف بين وُلاته على الأمصار ، لا يكاد يمدّ لأحدهم فى الولاية . فلما عزل عماراً ولقيه بعد ذلك فى المدينة قال له : أساءك عَزْلنا إياك ؟ فأجابه عمار : أمَا إذا قلت ذاك فقد ساءنى حين استعملتنى وساءنى حين عزلتنى . ثم فرغ عمار للعبادة والطاعة والأمر بالمعروف وتأديب الناس فى دينهم ما بقى من أيام عمر وصدراً من أيام عثمان . ولكن عماراً يعلم ذات يوم أن عثمانَ قد أمّر عبد الله بن سعد بن أبى سرح على مصر ، فيحضره خاطر مؤلم يُمرّه فى نفسه ثم يُلقيه فى أعماق ضميره لا يحدّث به نفسه بعد ذلك ولا يحدّث به الناس . ويذكر أن آية فى القرآن قد أنزلتْ أشير فيها إليه وإلى عبد الله بن أبى سَرْح هذا الذى أمّرَ على مصر ، وهى قول الله عز وجل : « مَنْ كفرَ بالله من بعد إيمانه إلاّ مَنْ أُكرِهَ وقلبه مُطمئنّ بالإيمان . ولكنْ مَنْ شَرَحَ بالكُفر صَدْراً فعليهمْ غَضَبٌ منَ الله ولَهمْ عَذَابٌ عظيمٌ » . وكان المسلمون يرون أن عبد الله بن أبى سَرْح هو الذى أشير إليه فى قول الله عز وجل : « مَنْ شَرَحَ بالكفر صَدْراً » .

يقول عمار لنفسه إن عبد الله بن أبى سرح قد عاد بأخرة إلى الإسلام ، فعسى أن يكون قد تاب وأصلح ، وعسى الله أن يكون قد حطّ عنه ثقلَ الكفر بعد الإيمان . ولكن سيرة عبد الله بن أبى سرح فى مصر تُصبح موضع الشكوى بين المصريين كسيرة غيره من وُلاة عثمان فى الكوفة والبصرة . ثم تكثر الشكوى ويشيع التنكير ، حتى يغضب المهاجرون والأنصار فى المدينة ويتكلمون فى ذلك ، ثم يجتمعون ويتشاورون ، ويذهب عمار إلى عثمان عن نفسه أو عمن

وراءه من المسلمين ليحدثه برأى الناس فى وُلاته ، فلا يرضى قوله عثمان ، ويعظم الأمر بينهما ، حتى يأمر عثمان بإخراجه ، فيخرجه غلمانه ويضربوه حتى يُغشى عليه ، وحتى يظن الناس أنه الموت . ولكن عماراً يفيق ويقول : طالما عُذّبنا فى الله من قبل . ويُصبح منذ ذلك اليوم زعيما من زعماء المعارضة لعثمان .

٢٥

لبث عبد الله بن مسعود فى الكوفة بعد أن عُزل عنها عمار ابن ياسر ، لم يَعدْ إلى المدينة ، ولم يُنحّ عن عمله ، وإنما ظل أميناً على بيت مال الكوفة معلماً لأهلها مشيراً على ولاتها . وقد علم الناس فأحسن تعليمهم . فملأ قلوبهم حباً له وإعجاباً به . وترك فى نفوسهم أقوى الأثر وأبقاه .

ولم يكن ذلك غريباً ؛ فقد لزم ابن مسعود رسول الله فأطال لزومه ، حتى ظن بعض أصحابه أنه من أهل البيت . وأخذ من فم النبى سبعين سورة من القرآن لم يُنازعه فيهنّ أحد ، وكان النبى يحب قراءته للقرآن ويحببها إلى الناس ويقول : « مَنْ سَرّه أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على ابن أمّ عبد » .

وكان عبد الله شديد التأثر[1] للنبى فى قوله وعمله وفى حركته وسكونه وفى تحدثه إلى الناس واستماعه لهم ، وفى تأنّيه للأمور[2] حين تعرض ، وثباته للخطوب حين تشتدّ ، وكان شديد الاقتداء به

(١) التأثر : الاقتداء والاتباع .
(٢) تأنى للأمر : ترفق له وتقصد .

فى هذا كله ، حتى اتفق الذين عرفوه من أصحاب النبى أنه كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم فى هَديه وسَمْته ودله[1] . وكان حذيفة ابن اليمان يقول : ابن مسعود أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وسمتاً ودلاً حتى يُواريه جدار بيته .

وكان ابن مسعود يُقرئ الناس القرآن أثناء إقامته فى الكوفة ، ويعظهم عشيّة كل خميس . يقوم فيهم خطيباً معتمداً على عصاً ، فيتكلم ما شاء الله أن يتكلم ثم يسكت ، وأحبّ شىء إلى سامعيه أن يمضى فيما كان فيه من حديث . ولم يكن ابن مسعود يخاف شيئاً كما كان يخاف الرواية عن النبى ، شأنه فى ذلك شأن المتحفّظين الذين سمعوا النبى يقول : « مَنْ كذَبَ علىّ متعمداً فليتبوأ مقعدَه من النار » ! فأشفقوا أن يتحدثوا عنه فيخطئوا صدقَ الحديث وهم لا يشعرون . وجرى مرة على لسان ابن مسعود وهو يعظ الناس قوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكد هذا القول يجرى على لسانه حتى أخذته رِعْدَةٌ عنيفة اضطرب لها جسمه كله وتزعزعت لها العصا التى كان يعتمد عليها وتصبب العرق على جبهته . فقال : أو فوق هذا ، أو نحو هذا ، أو دون هذا ، ولم يرض أهل الكوفة على أحد من ولاتهم كما رضوا عن عبد الله بن مسعود وعن أبى موسى الأشعرى . وقد توفى عمر رضى الله عنه وابن مسعود أمير على بيت المال فى الكوفة ، فأقره عثمان على عمله . حتى إذا كانت ولاية الوليد بن عقبةَ للكوفة حدثت أحداث حولت ابن مسعود إلى المعارضة ،

(١) الهدى والسمت والدل ، قريب معنى بعضها من بعض ، وهى عبارة عن الحالة التى يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة .

وكان ابن مسعود قبل هذه الأحداث من أرضى الناس عن عثمان وأحسنهم ذكراً له ودعاء إليه .

٢٦

وقد حدث بعض هذه الأحداث فى الكوفة ، وحدث بعضها الآخر فى المدينة ، فأما ما حدث منها فى الكوفة فسياسة جديدة فى بيت المال لم يألفها عبد الله بن مسعود ولم يكن ليطمئن إليها أو يرضاها . فقد كان الوليد يتوسع فى النفقة ، ويرى أن له أن يصنع بمال المسلمين ما يشاء . وكان ابن مسعود قد ألف منذ أيام عمر أن أموال بيت المال ملك للمسلمين لا للأمراء ، وأن الأمراء لا ينبغى أن يُنفقوها إلا بحقها وفى الوجوه التى تنفع عامة المسلمين .

وإلى جانب هذه السياسة المالية الجديدة كان للوليد بن عُقبةَ سيرةٌ لم يرض عنها خيار أهل الكوفة . وقد أنكر ابن مسعود ما أنكر الناس ، وكره الوليد منه هذا الإنكار ، واشتد الخلاف بينهما . وكان الناس إلى ابن مسعود أميل ، وله أحبّ ، ولقوله أكثر استماعاً .

وأما ما حدث فى المدينة فانتداب[1] عثمان لجمع القرآن فى مصحف واحد وقراءة واحدة .

وقد ألف عثمان لهذا العمل الخطير لجنة من حفّاظ المسلمين . وجعل رياستها لزيد بن ثابت . وليس من شك فى أن عثمان قد نصح للمسلمين فى هذا العمل ، وكره لهم أن يختلفوا فى قراءة كتاب الله . ولما تم له جمع المصحف أذاعه فى الأمصار ، وحظر

(١) انتدب للأمر : دعا إليه وحث عليه .

القراءة على غير ما كتب فيه ، وتقدّم فى تحريق غيره من الصحف التى كتب فيها القرآن قبل أن يجمع المصحف الإمام . فكره ابن مسعود ذلك ، وكان من أقرأ الناس وأحفظهم ، وأبى أن يذعن لأمر عثمان . ثم لم يكتف بذلك ، وإنما جعل يلهج بنقد ما تقدم فيه عثمان وبنقد سيرة الوليد فى الكوفة . وكان إذا خطب الناس يوم الخميس من كل أسبوع قال لهم فيما كان يقول : إن أصدق القول كتاب الله ، وأحسن الهدْى هَدْىُ محمد ، وشرّ الأمور مُحْدَثاتها ، وكل مُحْدَثة بدْعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . ورأى الوليد فى هذا الكلام تعريضاً به وبعثمان ، فتقدم إلى ابن مسعود فى ألا يعيده ! فلم يحفل به ابن مسعود ولم يلتفت إليه . فكتب فيه إلى عثمان ، وكتب إليه عثمان يأمره بإخراج ابن مسعود من الكوفة وإرساله إلى المدينة ففعل . وخرج الناس يشيعون ابن مسعود إلى ظاهر الكوفة محزونين يلحون عليه فى أن يبقى بينهم ، ويخافون عليه من عثمان أن يبطش به أو يناله بمكروه ، ويعاهدونه على أن يحموه فلا تصل إليه يد بسوء ؛ ولكنه أبى عليهم قائلا : إن هذا أمر سيكون ، وما أحبّ أن أكون أول مَنْ فتحه . ودخل المدينة ذات ليلة ، فلما أصبح غدا على المسجد ، وكان ذلك اليوم يوم جمعة . فلما رآه عثمان قال له قولا غليظاً وعابه من أعلى المنبر ، فردّ عليه ابن مسعود قائلا : لستُ كما تقول ، ولكنى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر ويوم أُحُد ويوم الخندق ويوم بيعة الرضوان . ونادت عائشة رحمها الله من وراء الستر : وَيْحك يا عثمان ! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم !

فقال لها عثمان : اسكتى ، ثم أمر بعض غلمانه بإخراجه من المسجد . فأقبل غلام أسود طوّال فاحتمل ابن مسعود وأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وابن مسعود يحاول أن يفلتَ منه ورجلاه تختلفان على كتفيه وهو يصيح بعثمان: أنشدُكَ اللهَ لا تخرجنى من مسجد خليلى صلى الله عليه وسلم . ولكن الغلام يمضى به . حتى إذا بلغ باب المسجد ضرب به الأرض فكسرتْ إحدى أضلاعه. وحُمل إلى بيته مكروباً .

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما حرَمه عثمان عطاءه سنتين . فأقام ابن مسعود فى المدينة مغضوباً عليه من الإمام . يوادّه على رغم ذلك صديقه من أصحاب النبى . حتى إذا أدركه المرض الذى مات فيه عرف عثمان أنه مشرف على الموت . وهنا يختلف الرواة : فأما الناقمون من عثمان فيقولون إنه سعى إلى ابن مسعود واعتذر إليه وعرض عليه عطاءه وسأله أن يستغفر له . فلم يقبل منه ابن مسعود شيئاً ، ووسط عثمان أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم عند ابن مسعود فلم يقبل لها وساطة . ومات ابن مسعود والأمر بينه وبين عثمان على شرّ ما يكون . وقد يغلو الناقمون على عثمان فيزعمون أن ابن مسعود أوصى ألا يصلّى عليه عثمان ، وأنّ عمار بن ياسر تلقى هذه الوصية وأنفذها . فكان هذا مما زاد غضب عثمان على عمار .

وأما الذين يتولون عثمان ويحسنون الظن بهؤلاء النفر من المهاجرين فيقولون : إن عثمان عاد ابن مسعود فى مرضه واعتذر إليه . فقبل منه واستغفر كلا الرجلين لصاحبه. ومات ابن مسعود فصلى عليه عثمان وقام على قبره وأحسن الثناء عليه . وهذا أشبه بسيرة الرجلين جميعاً .

ويدخل الزبير بن العوام على عثمان ، وكان ابن مسعود قد

أوصى إليه فيقول له : ادفع إلىّ عطاء ابن مسعود ؛ فإن عياله أحق به من بيت المال . قال عثمان: نعم ، ثم أدّى إلى الزبير عطاء ابن مسعود ومثله معه ، وأمر خازن بيت المال فدفع للزبير خمسة وعشرين ألفاً .

ويجتمع أهل الكوفة بعد ذلك بسنتين حول علىّ رضى الله عنه ، ويذكر ابن مسعود ، فيقولون لعلىّ : يا مير المؤمنين ، ما رأينا رجلا كان أحسن خلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسن مجالسة ولا أشدّ ورعاً من عبد الله بن مسعود . فقال علىّ : نشدتكم اللهَ . إنه لصدقٌ من قلوبكم ؟ قالوا : نعم . فقال : « اللهم إنى أشهدك . اللهم إنى أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل » .

٢٧

لم يشتد أحد من أهل المدينة فى معارضة عثمان حين ظهرت الفتنة كما اشتد عمار بن ياسر ، كان على الفطرة كما وصفه النبى صلى الله عليه وسلم . وكان يكره التأول ويكره المتأولين ، وكان يحب من القول أصرحه . ومن العمل أوضحه ، ومن السيرة أشدّها استقامة وأبعدها عن العوج والالتواء . وكان الدين الخالص قطعة من طبعه وعنصراً مقوّماً لمزاجه . وكان أزهد الناس فى الدنيا وأقلهم احتفالا بمنافعها . وأشدّهم خوفاً من الفتنة ، وأكثرهم انصرافاً عن تعقيد السياسة والتوائها . وكان يحب الحق ويسعى إليه ، ولا يحب إلا الحق ولا يسعى إلا إليه . وقد رأى من سيرة النبى وصاحبيه استقامة لا عوجَ فيها ، وصراحة بريئة من الغموض ، فاستقر فى نفسه أن أمر السلطان يجب أن يستقيم دائماً كما استقام للنبى

وصاحبيه . فلما رأى اختلاط الأمر واشتباك المنافع واختلاف الأهواء أيام عثمان ، شقّ عليه هذا كله ، فلم يستطع قلبه أن يسيغه ، ولم تستطع فطرته أن تطمئن إليه ، فأنكر فيما بينه وبين نفسه ولاذ بصمته الطويل، واستعاذ بالله من الفتنة كأشد ما يستعيذ الإنسان بالله منها . ثم رأى الناس وسمعهم ينكرون ، فلم يكد يفكر ويقدر ويستقصى حتى أنكر كما أنكروا وعارض كما عارضوا ، ولكنه على ذلك استمسك بالصمت واستعاذ بالله من الفتنة ؛ حتى رأى وسمع أولئك الشيوخ من أصحاب رسول الله ومن المهاجرين بينهم خاصة ينكرون ، فجعل اليقين يستبين له .

وتحدّث الناس فى المدينة ذات يوم أن عثمان أخذ شيئاً من جوهر كان فى بيت المال فحلى به بعض أهله ، وجعل المهاجرون والأنصار يقولون فى ذلك حتى أكثروا . وتكلم عثمان على المنبر ذات يوم فقال : لنأخذَنّ حاجتنا من هذا المال وإن رَغمتْ أنوف أقوام . قال علىّ : إذن تُمنع من ذلك . وقال عمار : أشهد الله أن أنفى أولُ راغم . وقد سكت عثمان لقول علىّ وغضب لمقالة عمار فشتمه ، وكان هذا فى بعض ما يُروَى أول الشرّ الذى انتهى إلى ضرب عثمان لعمار حتى أصابه الفتق وَغُشىَ عليه وفاتته صلوات الظهر والعصر والمغرب . ثم أفاق فتوضأ وصلاهن . وذكر فتنة قريش له وتعذيبها إياه فى الإسلام . ومنذ ذلك اليوم خرج من صمته . وجعل يقوم ويقعد بنقد عثمان . حتى إذا أقبل الثائرون من الأمصار لم ينكر عليهم ولم يحاول ردهم . ثم قُتل عثمان فلم يأسَ على قتله .

(١) يأسَ : يحزن .

وربما جادل فى أن عثمان قد قُتل مؤمناً أو كافراً . وقد خاصم الحسن بن علىّ فى ذلك . كان الحسن يرى أن عثمان مات مؤمناً ، وكان عمار يزعم أنه مات كافراً . واشتد الجدال بينهما حتى ارتفعا فيه إلى علىّ رحمه الله ، فكفّ علىّ عماراً عن مثل هذا الجدال فى رفق .

ولم يشتدّ عمار فى شىء بعد قتل عثمان كما اشتد فى مناصرة علىّ ولا سيما حين ثارت الحرب بينه وبين معاوية . فى ذلك الوقت استبان الحق لنفس عمار وقلبه وضميره ، ولم يَشكّ لحظة فى أن عليّاً وأصحابه كانوا على الحق ، وفى أن معاوية وأصحابه كانوا على الباطل . ولم يُقبلْ عمار على حرب خالص النية فيها لله ورسوله بعد وفاة النبى كما أقبل على حرب صفين . كانت مقالة النبى له : « تقتلك الفئة الباغية » قد استقرت فى أعماق نفسه ، وكأنها ظهرت له جلية نقية ناصعة ساطعة حين خرج مع علىّ وأصحابه يقصدون قَصدَ صفين . هنالك لم يَشكّ عمار فى أن معاوية وأصحابه هم الفئة الباغية ، وفى أن هذه الحرب التى كانوا ينصبونها لابن عمّ النبى إنما كانت تُشبه غيرها من الحروب التى كانت قريش تنصبها للنبى نفسه يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق . فخرج عمار إذن إلى حرب صفين على بصيرة من أمره ، قد أخلص قلبه لله ، ووهب نفسه لله ، وابتغى الشهادة فى صفين كما كان يبتغيها فى المشاهد التى شهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد سمعه من سمعه وهو يقول ذات يوم أثناء مسيره إلى صفين على شط الفرات : اللهم إنه لو أعلم أنه أرضى لك عنى أن أرمى

بنفسى من هذا الجبل فأتردى فأسقط فعلتُ . اللهمّ لو أعلم أنه أرضى لك عنى أن ألقى نفسى فى الماء فأغرق نفسى فعلت . فإنى لا أقاتل إلا أريد وجهك ، وأنا أرجو ألا تخيبنى وأنا أريد وجهك .

وكان عمار فى ذلك الوقت قد جاوز التسعين . ولكن الناس ينظرون إليه فإذا هو قد استرد من القوة والشباب والنشاط ما لم يكن لهم عهد به من قبل . كان أسرعهم إلى الحرب وأكرههم للقعود . وأحبهم للموت ، وأبغضهم للحياة ، وكان مستيقناً يقيناً لا يعرض له الشك أنه على حق . وأنه يقاتل فى سبيل الله . وقد اشتدت الحرب بين الفريقين بصفين يوماً ويوماً . فلما كان اليوم الثالث قال معاوية : هذا يوم تتفانى فيه العرب إلا أن تُدركهم خفةُ العبد . يريد بالعبد عماراً ، ويريد بخفته شدة نشاطه فى الحرب واستخفافه بما تحتاج إليه من مكر وكيد وأناة .

وفى هذا اليوم قاتل عمار نهاره كله حتى ملأ قلوب الناس عجباً وإعجاباً . وكانوا يرونه شيخاً طويلا آدم . تُرْعَدُ الحربة فى يده ، وهو خفيف الحركة موفور النشاط ، يسعى هنا وهناك ، يحرض هذا وذاك . وفريق من المسلمين يرقبونه ويتحدثون ببلائه ، بعضهم يصحب جيش علىّ ولكنه لا يقاتل كخزيمة بن ثابت الأنصارى الذى سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار : تقتلك الفئة الباغية . ورأى عماراً يقاتل مع علىّ فهو يرقب عماراً ليرى آخرته . وبعضهم مع معاوية يشهد الحرب ولا يشارك فيها ،

بلغته مقالة النبى فى عمار فهو يرقُب عماراً وينتظر آخرته . ومن هؤلاء هنى مولى عمر بن الخطاب رحمه الله . فى ذلك اليوم قاتل عمار وهو على رأس كتيبته حتى كانت العصر . فلما جعل الأصيل ينشر أشعته الشاحبة الحزينة على المقتتلين اشتد نشاط عمار وأخذه شىء يشبه أن يكون شغفاً بالموت ، فجعل يحث مَنْ حوله على القتال ويصيح : الجنة تحت أطراف العوالى . اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه ، وكان صائماً . فلما وجبت الشمس قال اسقونى . فجىء بشربة من لبن ، فلما رآها ضحك وشرب ثم قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آخرُ زادك من الدنيا لبنٌ حتى تموت » . ثم جعل يحرض الناس ويُعيد مقالته : الجنة تحت أطراف العوالى . الظمآن يرد الماء ، الماء مورود ، اليوم ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه .

وقد انكشف أصحاب علىّ شيئاً . فلم يُوهن ذلك من نفس عمار ولم يبلغ من يقينه شيئاً ، وإنما جعل يقول والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمتُ أنّا على حق وأنهم على ضلالة .

وكانت راية معاوية مع عمرو بن العاص ، فجعل عمار ينظر إليها ويقول : لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة . وكانت راية علىّ مع هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ؛ وكان هاشم أعور ، فكان عمار يحثه ، يُغلظ عليه مرة فيقول : تقدّمْ يا أعور ، ويرفق به مرة أخرى فيقول : تقدّمْ يا هاشم فداك أبى وأمى . وكان هاشم يقول له : رحمك الله يا عمار ! إنى إنما أزحف باللواء وأرجو أن يفتح الله علىّ ويُبلغنى ما أريد ، وإن فى العجلة الهلكة . فيقول له تقدّمْ

فداك أبى وأمى ، وما يزال به حتى يتقدمْ . فإذا رأى عمار صاحب الراية يتقدم بها صاح بمن حوله : مَن رائحٌ إلى الله ! من رائح إلى الجنة ؟! ثم اندفع فقاتل حتى قتل .

وقد رأى خزيمة بن ثابت مصرع عمار فقال : الآن استبانت لى الضلالة ، ثم دخل فسطاطه فاغتسل ، ثم لبس سلاحه ثم تقدم فقاتل حتى قتل .

وأما هنى مولى عمر بن الخطاب فقد عرف عماراً حين أسفر الصبح ، فأقبل حتى دخل على عمرو بن العاص وهو جالس على سريره ومن حوله نفر يتحدث إليهم . فقال هنى : أبا عبد الله ؛ قال عمرو : ما تشاء ؟ قال هنى : انظر أكلمك . فقام عمرو حتى خلا إليه . قال هنى : عمار بن ياسر ، ماذا سمعت فيه ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقتله الفئة الباغية . قال هنى : ها هو ذا مقتول . قال عمرو : هذا باطل . قال هنى : بصرتْ عينى به مقتولا . قال عمرو : هلمّ أرنيه . فذهب به حتى رآه بين القتلى . فلما رآه امتقع لونه ، ثم أعرض فى شق ، وقال : إنما قتله مَنْ أخرجه .

وكان عمار قد قال لأصحابه مساء ذلك اليوم : لا تغسلونى ولا تحثوا علىّ تراباً فإنى مخاصم . فلما قُتل أقبل علىّ فصلى عليه، ولم يغسله وقال : « إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر وتدخلْ به عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد . رحم الله عماراً يوم أسلم ، ورحم الله عماراً يوم قُتل ، ورحم الله عماراً يوم يبعث حياً . لقد رأيت عماراً وما يُذكر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعةٌ إلا كان رابعاً ، ولا خمسة إلا كان خامساً . وما كان

أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشكّ أن عماراً قد وجبت له الجنة فى غير موطن ولا اثنين . فهنيئاً لعمار بالجنة » . ولقد قيل: إن عماراً مع الحق والحق معه يدور . عمار مع الحق أينما دار ، وقاتل عمار فى النار!

٢٨

أقبل رجلان من أصحاب معاوية حتى دخلا عليه فسطاطه ومعه عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو ونفرٌ من أصحابه ، فجعلا يختصمان فى قتل عمار ، كلهم يزعم أنه قاتله . قال عبد الله بن عمرو : ليطب به أحدُكما نفساً لصاحبه ، فإنما تختصمان فى النار ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقتل عماراً الفئة الباغية ، وقاتله وسالبه فى النار » . قال معاوية لعمرو : ألا تكفّ عنا مجنونك يا عمرو ! ثم التفت إلى عبد الله بن عمرو وقال : إن كان هذا رأيك فمالك معنا ؟ قال عبد الله : إن أبى شكانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرنى أن أطيعه ما دام حياً ؛ فأنا معكم ولست أقاتل . قال معاوية : لم نقتله ، إنما قتله من جاء به .

جلس عمرو بن العاص إلى جماعة من أصحابه يسمر معهم بعد أن خلص الأمر كله لمعاوية ، فقال له بعض القوم : إنا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحبك وكان يستعملك أبا عبد الله . قال عمرو : أما إنه كان يستعملنى ، وما أدرى أكان يحبنى أم كان يتألفنى (١) ،ولكنا نرى أن رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى رسول الله وهو لهما محب وعنهما راض . قال القوم . من هما ؟ قال عمرو : عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . قال

(١) يتألفه : يتكلف ألفته ويداريه .

القوم : عمار بن ياسر ! فذاك قتلكم يوم صفين ؟ ! قال عمرو : صدقتم والله لقد قتلناه !

كان عمار على رأس كتيبته يوم قُتل ، وكان ذو الكلاع الحميرى من أصحاب معاوية على رأس الكتيبة المواجهة لعمار . فقتلا كلاهما . وتحدث ابن سعد عن أصحابه أن عمرو بن شُرحبيل أبا مَيسرَة رجلا من أصحاب عبد الله بن مسعود ومن خيرهم ، قال : رأيت فى المنام روضة خضراء فيها قبابٌ مضروبة فيها عمار ، وقبابٌ مضروبة فيها ذو الكلاع . فقلت : كيف هذا وقد اقتتلوا ؟ فقيل : وجدوا ربًا واسع المغفرة .

٢٩

وأطرق القاصّ حين بلغ هذا الموضع من حديثه إطراقة طويلة . حتى ظن سامعوه أنه لن يقول شيئاً فهموا أن يتفرقوا ، ولكنه رفع إليهم رأسه وتلا عليهم قول الله عز وجل : « ونريدُ أنْ نَمنَّ على الذينَ استضْعفوا فى الأرْض ونَجعلهمْ أئمة ونجعلهمُ الوَارثِين وَنُمكِنَ لَهمْ فى الأرْض ونُرى فرعوْنَ وهامانَ وَجنُودَهمَا منهم مَا كانوا يَحذَرُونَ » . ثم قال بعد أن سكت سكتة قصيرة : صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ ! لقد أورث هؤلاء المستضعفين أرضَهُ ، وأدال لهم من قيصرَ وكسرَى (١) ، وَجعلهم أئمة للناس ما عاشوا . حتى إذا اختارهم لجواره وآثرهم بنعيمه جعل ذكرهم خالداً ، وسيرتهم رضا ، وحياتهم قدوة صالحة وأسوة حسنة ؛ فهم أئمة للمسلمين حتى يَرثَ اللهُ الأرْض وَمنْ عليها .

سبتمبر سنة ١٩٤٩ — بيرا كافا — مولان

(١) أدال لهم : جعل الكرة لهم على الروم والفرس .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٣٧

I.S.B.N 977-01-4408-8